غرفة فندق

الطّبعة الثانية

السداسي الثاني 2019

كل الحقوق محفوظة لصالح دار الكلمات للنشر والتوزيع

ردمك:ISBN:978-9931-695-45-5

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بـأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسـجيل الفـوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخــرى بما فيا حفظ المعلومــات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من الناشر

دار الكلمات للنشر والتوزيع

العنوان: لانطندا مقابل الطريق الوطني تازولت. باتنة

Email: dar.elkalimat2018@gmail

الهاتف: 213 - 791 - 681 - 304

رواية

غرفة فندق

سعاد بلوني

الحب هو أن تخلص دون انتظار مقابل

الحب هو أنت تحسن وأنت على علم أن من تحسن له قد لا يقابلك بالمثل

دوما تساءلت عمّا إذا كان للقلب ذاكرة

وهل لذاكرة القلب أن تحل محل ذاكرة العقل.

أحببتك ولكن الحياة أنستني ذكراك.

وأظن أن الحياة أقوى منك ومني ومن ذاكرتنا

غرفة فندق

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ القديم.

حفلة ضخمة في صالة حفلات الفندق على شرفي.

كلّ هذا لي ومن أجلي!

جناح مثل هذا بمالي وعلى حسابي، من كان يتصوّر حصولي وامتلاكي لكلّ هذا.

إنّها الحياة حين تقرّر أن تمنحك الكثير تعويضًا لشيء عزيز فقدته.

لقد نشأت على البساطة وعلى استعمال مال والدي على قلّته رحمة الله عليه.

لم أتخيّل ليوم فيما مضى أنَّه سيأتي عليَّ حين من الدّهر اشتغل فيه واسترزق مصروفي بنفسي وبمجهودي ولوحدي.

مع أنّي كنت أدرس ومجتهدة وطالما ثابرت للحصول على شهادتي.

ربّما الأمر يعود إلى تربيتي والمجتمع الّذي نشأت فيه والّذي عوّدني على رؤية الرّجل في العمل والمرأة في البيت وكأنَّ الأمر مسلّمة من المسلّمات الّتي يجب السير وفقها.

على كلّ هي معتقداتي فيما مضى والماضي ذهب ورحل عنّي وعن الكلّ طبعًا.

رحل تاركا ذكريات كثيرة على جمالها وقبحها مرسّخة في خلايا الدّماغ.

أشتاق من الماضي إلى والدي.

والدي ذلك الطيّب الحنون.

والدي ذلك الشّخص البارع في النّصح.

والدي ذلك الشّخص المثابر الّذي كان يمنحني مصروفي دون أيّ مجهود منّي ولا جهد مضن.

اليوم أصبحت أَمْلِكُ الكثير.

الكثير الّذي لا يأتي إلاّ بعد سهر مضن وتفكير كثير وشقّ الأنفس.

أحبّك والدي.

كلّ الكلمات لا توفي بديْني لك.

أتمنّى حقّا أن تكون في روضة من رياض الجنّة.

لقد أحسنت إلي وأتمنّى أنْ يحسن الله إليك، ويجازيك على صلاحك وتقواك له في كلّ مكان وفي كلّ موقف.

غصة في قلبي لا تفارقني منذ زمن منذ نكبتي.

وكأنّ لا نكبة إلاّ نكبتي.

أتنفس بعمق في محاولة منّي لاستعادة أنفاسي.

وإذا بأفكار عديدة متباينة تساورني على حياتي وما مضى منها فأضحك وأنا أقول في نفسي:

ـ للفرح ضحك كما للحزن ضحك ألم يقل العرب سالفا شرّ البلية ما يضحك.

أجد نفسي متوجّهة نحو المرآة وأنا متسائلة عن مظهري وعمّا ستعكسه لي.

مظهري جميل وهذا ما تعكسه لي المرآة دوما وما عكسته لي دوما.

أهذه حقيقة أم وهم؟

فالأوهام كثيرة في حياتنا والفضل يعود إلى أدمغتنا البارعة في إيهامنا بأشياء غير موجودة أو غير صحيحة بالتوافق مع نفسيتنا أو بالأحرى معتمدا على الوضع النفسيّ لنا فكم من شخص سمعته يقول لست بجميل وهو في الحسن آية، وذلك لأنّ نفسيته متذبذبة تائهة لا ترى الحسن.

وكم من شخص سمعته يمدح نفسه وهو من الجمال بعيد بعد السّماء عن الأرض.

ولست ممّن يشمت في خلق الله.

فالّذي خلق يوسف -عليه السّلام- قادر على أنْ يخلق مثله أو خيرا منه.

لكنّي فقط أحاول أنْ أبيّن أنّ كيفية رؤيتنا لأنفسنا مرتبطة بحالتنا النّفسية وما هو متكدّس فيها وأنّ ما نراه في المرآة ليس بالمصداقيّة الكبيرة.

مظهري جميل لأنَّ نفسي جميلة وهادئة.

كن جميلًا ترى الوجود جميلا.

مضت أيّام من حياتي لم أكن أرى فيها سوى القبح.

وقتها كرهت المرآة وما كانت تعكسه لي.

أكنت ظالمة في كرهي.

آه على الزمان وما نتلقاه فيه من أمور جسام تجعلنا نكره كلّ شيء حتّى ما تعكسه المرآة.

مضى على ولادتي زمن طويل ولم يبق من هذا الزمان سوى بعض الذّكريات التي تلوح في مخيلتي من حين إلى آخر فطردها حينا وأتلقفها حينا آخر فأسايرها وأحاورها فتؤنسني وتبكيني.

ولدت في أجمل الفصول وحللت على والديا حلول المطر على أرض بور لم تذق المطر لأعوام طوال، لم يكن لوالديا من قبلي ولد فكنت مطرا غسل الأحزان وارتوت به القلوب بعد عشرين عامًا من الانتظار.

أتيت بعد عشرين عاما من الجفاف.

كنت هدية من الخالق وهبته فسميت هبة.

ولقبت هب.

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ القديم من كان يتصوّر كلّ هذا النعيم.

تعرّفت عليك وأنا طفلة صغيرة أحببتك وأحببتني.

تشاركنا الإحساس ولم يكن والدي راضيا، فقد كان يحلم بخير منك شريكا لدرب حياتي لم أصغ لوالدي فالحب أعمى ظلمته وفي ذلك ظلم لنفسي.

كنت جارًا لي.

لم يفصل بيتك عن بيتنا سوى الطّريق المؤدّية إلى المدرسة الابتدائيّة حيث كنّا زميلين في نفس القسم ونحن طفلين ما جعل والدي يعرفك أعز المعرفة من صباك، فلا يرغب فيك ولا ينتظر منك إلاّ القليل ويكره مصاهرتك لأسباب ما خفية عليّ وقتها. أمّا بخصوص رأي أمّي فلم يكن بالبعد الكبير عن رأي والدي فقد قالت لي يومًا ألم تجدي رجلا خيرا من ابن عبّاس تحبّينه هل انقرض الرّجال يا ابنة بطني؟

يوم طلبت يدي أتيت وحدك دون أهلك.

ما اعتبره والدي استهتارا وقلّة حياء.

جلست على أريكة مقابلا لوالدي وأنت تلبس طقما رماديّا وقميصا أبيضا كنت أنيقا وكانت عيناك تبعثان على الفرح.

لم ينظر والدي إليك ولو لوهلة؛ لأنّه رافض لك ولم يرغب في مصاهرتك أراد أن تفهم الأمر وبقي جامد الإحساس من ناحيتك طيلة وجودك ولا أظن الأمر فاتك.

كنت تحدق فيَّ طيلة الوقت على منظر من والدي الذي أحسبه استغرب واحتار من قلّة حياء هذا الجيل الّذي يجمعنا انت وأنا.

بادلتك النّظرات غير آبهة بحيائي.

قلت لوالدي: - ***أطلب يد هب وأتمنّى أنْ لا أُرد.***

ردّ والدي: - ***لما والدك ليس معك؟***

- ولما تريده معي؟

- لأنّها العادات والتقاليد.

-لا تهمّني العادات بسبب العادات والتقاليد طلّق والدي أمي مع أنّه يحبّها حبا كبيرا، أنا أحب هب وهي تحبني ولا أرى جدوى من مجيء من لا يعنيه الأمر إلاّ من بعيد، أحب والدي وأحترمه لكن زواجي قضيّتي لوحدي.

- لست موافقا لرأيك ولا لمصاهرتك.

بغضب أجبت: ***- لِمَ ولكن لِمَ؟***

وقف والدي وهو يحدق في وجهي بحزن شديد: ***- لأنّك مختلف عنها... لأنّك لست من طينتها.***

أجبت والدي بتعجرف: ***- كلّنا من آدم وآدم من تراب ... كلّنا من طينة واحدة.***

خرج والدي من الصالون دون أن يضيف كلمة عمّا قاله فأبي لم يكن من ذوات الكلام الكثير أو من ذوات القيل والقال.

لحقت به أمي وبقيت أنا والانزعاج يأكل قلبي... لا أعرف اليوم هل كان الانزعاج منك أو عليك... كنت منزعجة من رفض والدي ومن تصرّفاتك على ما أعتقد وإن لم تخن ذاكرتي.

ركّزت على والدي ونسيت وجودك في الغرفة.

وقفت بغضب وقلت: ***- لن أعتب بابكم بعد اليوم.***

قلت: - هل ستتخلّى عنّي وعن حبّنا؟

- والدك....

قاطعت كلامك وقلت: ***- سأقنعه.***

لم أقنع والدي فقد كان مصرّا على رأيه ولم أنجح في إقناعه برأيي.

غرفة فندق واسعة وفخمة في فندق خمس نجوم من كان يتصوّر كل هذا النّعيم.

مرّ على يوم مجيئك لخطبتي سنة كاملة لا والدي اقتنع بك ولا أنا استسلمت وتخلّيت عنك، هل هو حبّ أم عناد أم قدر والله لا أعلم.

التقيت بك بعد العام قرب مكتبك وعزمتني لشرب الشاي.

جلسنا في المقهى متقابلين.

كنت صامتا عكس العادة.

أخذت أشرب الشّاي وأنا أدرس تعابير وجهك المتجهم.

قلت: ***- عام من الغياب دون أيّ خبر عنك أهذا هو الحب بالنسبة لك، عام كامل دون عطرك الّذي يذكّرني بالشتاء والجلوس قرب موقد مشتعل، أأنت تعاقبني بالغياب يا وجع قلبي ويا فرح روحي عام مضى دونك هو دهر بالنّسبة لمحب يفتقدك. إنْ كنت تحتمل لفراقي صبرًا فأنا لا أطيقه ونفسي منه وله تتألّم.***

أحب رائحتك العطرة لم أسألك يومًا عن اسم عطرك الّذي طالما أخذني إلى أحب الفصول على قلبي وسافرت به إلى مروج الشتاء لا نسيانا ولا خجلا ولكنّ الأمر يعود إلى حبّي للمغامرة وتمتعي بالمجهول والتساؤلات التي تشغلني بك عن دون النّاس هذا هو الحبّ بالنّسبة لي مجهول غياب واشتياق وحضور.

عطرك دوما جعلني أُحنُّ إلى الشتاء ودفء المنزل في يوم شتويّ عاصف.

- آسف لم أكن هنا كنت في الخارج من أجل عمل... أخبريني يا هب أوالدك مصرّ دوما على رفضه؟

- أتعبتني الحجج ولم يقتنع لا أدري ما علي قوله أو فعله؟

- سأقنعه.

- كيف؟

- لا فكرة لي الآن ولكن حتما سأجد الحل عاجلا وليس آجلا.

اقتنعت بما قلت فلم تقل يوما شيئا ورجعت فيه أو عليه.

فأنت محام بارع وصدقك من جعلك ما أنت عليه.

مرّت الأيام واقتنع والدي بك، لا أدري كيف فعلت هذا ولكنك كفيت ووفيت وأفرحت قلبي الولهان بك.

طلب منك والدي أن تحضر والدك لخطبتي كشرط أساسي لقبولك لكن الظّروف لم تسمح أو بالأحرى طباعك الّتي لم تسمح، فقد شب خلاف بينك وبين والدك ولم تجد ما يبرد نارك ويردّ اعتبارك سوى مغادرة المنزل كعقاب لوالدك.

هكذا أنت تعاقب من يحبّك بحرمانه منك، ولم يكن والدك ليسلم من العقاب.

طالما خفت من عقابك ولهيبه الّذي يلفح القلب.

طالما تساءلت عن حال ردّة فعلي ونوعّيتها لو عاقبتني بالفراق. أأحيا أم أموت... أأذوب أم أتجمّد؟

رحلت من منزل أهلك يوم الجمعة مساءًا، اتصلت بي بعد الشجار مباشرة وكنت في أوج غضبك، طلبت منّي أن أطل من الشرفة لأراك ولم أكن لأرفض لك طلبا وأنت على القلب ملك، أسرعت الى الشّرفة المطلة على منزلكم، وأنا أتحدّث معك على الهاتف وجّهت بناظري إلى منزلكم فرأيت شاحنة تنقل أثاثك.

جلست مفزوعة وأنا أتفرّج على أثاثك يُحمل ليُؤخذ بعيدا عنّي، أحسست وكأن قلبي يُؤخذ منّي ولم أتصور يومها أن الأمر هيّن أمام ما ينتظرني وأن الزمان في طياته يُخفي ما هو أبشع وأنّي سأعيش أمورا أشد قسوة وأكبر إيلاما من الأمر. أحببتك لكن الحب لا يصنع المعجزات أمر أكّدته لي بفعلك وجرأتك على الخيانة وأعرف أنّ ما أراه خيانة تراه أنت أمرا عاديّا لا ضير فيه يفعله الكثير وتعطيه أنت تعريفا آخر فيصبح حقا وشرعا وأغدو أنا الخائنة والمخطئة.

من كان يتصوّر أنّ بعد الحب فراق.

وقت رحيلك الأوّل كنت أكره الفراق ولا أستطيع له صبرا وكنت أعتصر منه ألما واشتياقا أما الآن واليوم أراه سنّة من سنن الحياة ولا أفهم حقّا لمّا أسرفت في الحزن عليك ولِمَ أجهدت نفسي بالبكاء وحملتها وزرا لا قبل لها عليه.

سمعتك تقول على الهاتف وأنت تراني جالسة من وطأة ما أرى.

ـ هب أأنت بخير؟

لم أكن بخير نهائيّا يومها ولكنّي أجبتك بلا أدري لأجعلك لا تفقه عمق حزني ببعدك عنّي فتجعل الفراق والابتعاد عقابًا لي كلّما اختلفنا في وجهات النّظر أو في أمر ما.

أحبّك أقصد أحببتك كثيرًا ومرّت الأيّام وأنت تسكن منزلاً بعيدا عن منزلنا ولم أعد أستطيع رأيتك في كلّ وقت وكلّما تاقت إليك نفسي.

اتصلت بي بعد شهر من رحيلك.

طلبت منّي أن أوافيك في شقتك مساء يوم السبت أيْ يوم عطلتك ولم أكن لأرفض وأنا المشتاقة على الدوام لك.

في قربك وبعدك أنت الحبيب

في الحضور والغياب أنت الحبيب

هكذا كنت لي الوحيد والحبيب في القلب.

دخلت الشقّة وأنا أرتدي أحبَّ ثيابي وأحذيتي إليك، ثوب أحمر قصير وحذاء مغلق بكعب عال، كنت لا ألبس إلاّ ما تحب ولا أشتري إلاّ ما تريد ولا أعيش لأحد سواك ولا ترى عيوني سواك. كنت لي كلّ شيء ولا أكذب على أحد إن قلت إنّي كنت مريضة بك وأن نفسي كانت معلولة بهواك.

فتحت الباب وعانقتني بعد أن افترستني بعيونك العسلية الفاتنة، لحظتها أردت أن أقول لك أحبك لا تخف أنت أهمّ شخص بالنّسبة لي وأنّ الحبّ الذي أحمله في قلبي لك لو وزّع على البشريّة جمعاء لكفاهم. أحبّك مراد

لم أقل أيّ شيء اكتفيت بالصّمت فالصّمت في حضرة الجمال جمال لا أحبّ تشويه الجمال بالثرثرة.

جلست بقربي على نفس الأريكة.

لم أشم عطرك، أحسب أنّك كنت متعبًا من المشاكل ولم يتسن لك التّفكير في العطر أو التعطّر.

- شهر كامل دون خبر عنك.

- أحبّك هب.

- ما بك.

- أحبك هب لا أريدك أن تسألي ولكن أن تؤمني بحبّي لك، أن أغيب لن يغيّر في حبّي لك، أن أبتعد لن يغيّر في أحاسيسي الصادقة لك، أنت أجمل ما في حياتي.

- ما بك مراد ليس من عادتك الحديث عن حبّك لي؟

أخذت تدخّن سيجارة وتبثّ فيها أنفاسك الحزينة وغضبك العميق.

استغرقت وقتًا لتعود من أحزانك إلي.

- ما بك مراد.

- لا أستطيع التعايش ووالدي أصلا لم أسامحه يومًا على ما فعله بأمّي المسكينة فكيف أعيش معه وأكمل حياتي معه في منزل واحد وأشاركه الأكل والعديد من الأشياء الأخرى.

تقف وتفتح النّافذة ليدخل الهواء النقي عساه ينعش قلبك.

أشعلت سيجارة أخرى وبدأت تدخّن وأنت تطلّ من النّافذة وقلت:

- أمّي كانت مظلومة ولم تكن هناك أيّة علاقة بينها وبين ذلك الرّجل....

استغربت من قولك العجيب الّذي كان مخالفا للشّائعات المتناقلة على الألسنة بخصوص طلاق أمّك، حين طلّق والدك أمّك كنّا في العاشرة من

عمرنا لكنّي أتذكّر جيّدا ما تناقله النّاس على لسان والدك صحيح أنّي لست ممّن يصدّق الشّائعات ولكن والدك أكّد لوالدي أنّ أمّك كانت على علاقة بطبيب عائلتكم وأنّه تلقّى بالصدفة رسالتين موجهتين لأمّك من الطبيب وقد أراهما لأبي وأكّد والدك لوالدي وللكلّ أنّه يحب دوما أمك ومستعدّ لمسامحتها ولكن جدّك من جهة أمّك الذي كان عمّ والدك رفض وقرّر طرد أمّك ونفيها بعيدًا عن ابنها والعائلة.

قاطعتك:- ***معقول؟***

- كان كلّ الأمر مدبّرا من والدي.

- ولكن ماذا تقول؟

- كان الأمر مدبّرا من والدي ليتزوّج من زوجته هذه. دبرا الأمر معا للتخلّص من أمّي.

- ولكن لِما لم يطلقها لمّا لجأ الى هذه المكيدة التي فيها مساس لسمعة ابنة عمّه الّتي هي زوجته لا أفهم لِما لم يكتف بتطليقها؟

تسكت ثمّ تقول:***- كي يأخذ كلّ أملاك جدّي الّذي هو عمّه فلو طلّقها دون سبب لطرده جدّي من المنزل ولكانت كلّ أملاكه ذهبت عليه... بمكيدته تلك أمّي من طُردت وحُرِمت من كلّ ما لها وآخذ هو كل شيء.***

- أتقصد أنّ منزلكم والمصنع في الأصل لجدّك.

- ولا زال الأمر كذلك فجدّي لا يزال حيا يُرزق لكنّه يثق جدًّا بوالدي ويعتبره الابن الّذي لم يُرزق به، جعله المسؤول على كلّ ملكه وتركه يتمتّع بما هو حق لأمي المنفية إلى يومنا.

تعود إلى الجلوس وتبتسم وتقول: - ***فلندع هذا الموضوع حدثيني عنك يا نرجس قلبي.***

- هههههههه أحب مناداتك لي بنرجس قلبي.

تبتسم ويمتلأ وجهك حبّا وفرحا.

أحبّ الفرح على وجهك.

أحبّ ثغرك المتبسم فهو يذكرني بصبانا حين كنت تبتسم دوما فلا مشاكل تشغلك ولا هموم تعكر صوفك آه لو أقدر أنْ أُعيد الفرح إلى وجهك الجميل لاتخذت للأمر كلّ السّبل.

- لا جديد في حياتي فقط مكوث في المنزل، انتظار للمجهول وعدّ للأيّام.

- هههههههههه انتظار للمجهول هل أنا مجهولك يا هب؟

- أنت وجع قلبي وفرحه.

تبتسم وتقول: ***- لِمَ لا تشتغلين فأنت محامية مثلي مثلك؟ أصلًا أنت الأفضل فقد كنت الأولى على دفعتنا وكلّ المعيدين في الجامعة طلبوا منك الاشتغال معهم لِمَ لا تريدين العمل؟***

- آه من الحياة !!

في ذلك الزمان وفي شبابي لم أفكّر نهائيًا في الشغل لم يكن لي هدف في الحياة سوى الحصول عليك والزواج بك أمّا الدراسة فقد كانت فقط لإرضاء الوالد.

اليوم غدوت مالكة أكبر شركة استثمارات في العقارات وأصبح الشّغل كل حياتي لم أعد مثلما كنت في الماضي تغيّرت وتغيّرت طريقة تفكيري من شخص يعيش لغيره إلى شخص لا يفكّر إلاّ في المال وطريقة تحصيله.

أنا اليوم ذلك الشخص الّذي لم أكنه يوما ولم أرغب في أن أكونه يومًا أنت خلقت اضطرابا جويًّا في وجودي فأصبحت ما أنا عليه الآن ما قمت به كان ظلما في حقّي وطفرة وراثية غيّرت من طباعي كلها أصبحت لا أتحدّث إلاّ بالمال وعن المال.

عملت ليل نهار للحصول على كلّ أملاكي لو سألتني لِمَ أجمع المال الكثير؟ لَمَ عرفت كيف أجيب وبِمَ أجيب؟

أجبتك بأن قلت ***:- لم أفكّر في هذا؟***

قضينا بعدها بقية الأمسية في الحديث عن أيّام دراستنا وقبل أن أودّعك قلت لي: ***- ما رأيك في رؤية شقتي هب؟***

ابتسمت: ***- الرّأي رأيك يا وجع القلب.***

بمكر قلت: ***- ألن تتوقّف عن مناداتي بوجع القلب مضى على هذه التسمية عشر أعوام ألا تريدين استبدالها بحب قلبي أو حبيبي.***

- لم أفكر في الأمر لكنّك وجع القلب وحبّه ودمه وحزنه وهمه وكيانه....

دخلتَ الغرفة الأولى ولحقتُ بك.

غرفة شاسعة واسعة بلون ورديّ فاتح.

استغربت من اللّون وكونه لون غرفة نومك، أمر عجيب! أنت لا تحب اللّون ولا تستطيع تحمُّلَ رؤيته مطولا، فماذا حدث وغيّرك؟ لم أستطع التّعليق على اللّون بعد أن رأيت مشهدا مثيرا.

صورة لك مع والدك التقطتها لكما في حفل تخرُّجنا.

قتلت وجود والدك على الصّورة.

غيّرت من شكل الصورة ومضمونها، أصبحت بلا روحها الأولى، وفارغة من مضمونها الأول، من صورة لوالد سعيد بابنه في أهمّ يوم في حياته يوم تخرّجه، إلاّ صورة شاب واقف بمفرده بلباس التخرُّج.

حرمت والدك منك حتّى على الصورة، هذا هو شكل عقابك فراق وهروب.

بحزن قلت: ***- ألن تتوقّف عن الهروب والفراق؟ أتفارق والدك حتّى على الورق؟ أحبّك وفي نفسي خوف منك ومن حبّك للانتقام. أرجوك حدّثني بكلّ ما هناك بينك وبين والدك. أريد معرفة كلّ شيء لأستوعب ما في داخلك من أمور وهموم، عساني أفهمك وأفهم منظورك للحياة الّذي لا أستطيع استيعابه.***

بغضب أجبت: ***- غير مهم أن تعرف كل شيء.***

- كلّ ما يخصّك مهمّ بالنسبة لي يا وجع القلب.

- أرجوك هب لا أريد الخوض في هذا الأمر.

- أعرف أنّك لن تقول أيّ شيء حين لا ترغب في البوح بالسرّ الّذي يسكنك، فالصمت أولى وأكرم لي حينها.

تأخر الوقت عليّ المغادرة.

- بهذه السرعة.

- أجل أقصد لي واجبات عليّ أداؤها.

كنتَ تعرف أنّي أكذب وأنّ الغضب من يدفعني للمغادرة، حدّقت فيّ مطوّلا قبل أنْ تقول: ***- أنت حرّة.***

لم أكن يومًا حرّة في حياتي، فحبّي لك من كان دوما يوجّهني، فقد كان بمثابة حزام يربطني إليك، ويجعل منّي أسيرة لك ولقراراتك، أنا لم أقرّر يومًا في حياتي، أنت من قرّرت في مكاني دومًا.

يوم قرّرت الرّجوع عن سفري للعيش في أمريكا عند خالتي والدراسة هناك، أنت من طلبت منّي وأنا لم يكن لي الآ أنْ أنفذ.

حين درست القانون أنت من طلبت منّي ولم يكن واردا في ذهني أنْ أكون محامية في الحقيقة، أردت أنْ أكون جرّاحة أورام، مثل ذلك الجراح الّذي استأصل ورم جدّتي. لكنّي غيّرت كلّ شيء من أجلك ومن أجل أنْ أكون معك في نفس الجامعة.

تخلّيت عن حلمي وأجمل ذكرى في حياتي من أجلك.

تعلم أنا لا أتذكّر قرارا لي كلّ قراراتي هي قراراتك.

مع هذا لا أستطيع مواجهتك بهذه الحقيقة، خشية أنْ تغضب عليّ وتحلّ لعنة الفراق بيننا.

- سألبس ملابسي وأرافقك إلى باب العمارة.

ترافقنا إلى الباب دون أنْ يقول أحد منّا كلمة للآخر.

على الباب عانقتني مطولا دون أنْ تقول حرفًا واحدًا.

أحسست بقبلة على عنقي وبدموعك تبلّل رقبتي.

أنت غريب لا تبكي إلاّ حين تنوي على تدمير أحد تحبّه.

وأعرف أنّ هذا الدمع صادق؛ لأنّه دمع قلبك الّذي لم يقدِر على إقناع عقلك بما يا يريده وبوجهة نظره.

قلبك يحبّ والدك ولا يزال يحبّه ولكن عقلك قرّر أنّه لا بد من معاقبته بقساوة على ما فعله بأمك. أعرف أنّ هذا الدّمع دمع حزن.

قلت: - أحبّك مراد.

- إيّاك أنْ تخطئ.

- أحبّك مراد.

- إيّاك أنْ تخطئ، فأنا لن أستطيع مسامحتك، مع أنّي أعرف أنّي لن أحب سواك مهما حاولت.

تركتك لحزنك ورحلت عنك.

أكره الحزن فهو متعب لنفس والفؤاد.

مشيت مطوّلا وأنا أفكّر بحياتي معك، هل ستنجح أم لا؟ وما عليّ فعله لنصل إلى برّ السلام في أيامنا القادمة معا؟

على باب عمارتنا التقيت بزوجة والدك.

طلبت منّي أخبارا عنك.

قلت: ***- بخير.***

كانت تعرف أنّي أكذب في قولي، وأحسب أنّها رأت هذا في عيوني.

أنت لست بخير ما لم تنتقم.

أنت هكذا مع هذا أحبّك.

مرّت الأيّام ولم نلتق ولم تأتني أخبار عنك، كنت خائفة منك وعليك.

بعد مضي شهر كامل بدون اتصال منك، زرتك في شقتك مساء يوم الجمعة، كان الجوّ باردا والأمطار هاطلة.

فتحت الباب وكنت لابسا طقما أسودا، كنت في قمّة وسامتك.

استغربت لرؤيتي أمامك.

أدخلتني بسرعة بعد أنْ لاحظت تبلّلي من الأمطار.

عزمتني على الجلوس على أريكة وأسرعت لإحضار منشفة وبدأت تنشف شعري وأنت جالس بقربي.

قلت: ***- توقف أستطيع فعل هذا يا مراد.***

ابتسمت وقلت: ***- أعرف هذا.***

- كما تريد.

- آسف لأنّي لم أتّصل بك.

- هي عادتك أنْ لا تتصل بي حين تعتريك المشاكل وأنا تعوّدت على الأمر منذ سنين.

- هههه يا لك.

لَمْ تكمل ما أردت قوله وأخذت تدخن.

قلت: ***- مراد ماذا أردت قوله؟***

لم تجب ولم ألح.

تعبت من تكبّرك وغرورك فأنت الأمر النّاهي في علاقتنا وأنا الحمل الوديع المطيع الّذي عليه العودة إليك في كلّ أمر يقدِم عليه.

وأحسب أنّ كلّ علاقة مبنية على هذا النّوع من التبادل العاطفيّ ينتهي بها الأمر بالفشل.

جلسنا مطوّلا معا دون أنْ يقول أحد منّا كلمة تقتل الصمت الّذي طال أمده حتّى أرهقنا وحلّ الملل ضيفا علينا.

رأيتك تحدق مطوّلا في ساعتك وفهمت سرّ تواجدك ببذلة رسميّة في منزلك.

أنت تنتظر أحدهم.

دون أنْ تحدق إليَّ قلت: ***- حسام أشرف سيكون هنا بعد عشر دقائق.***

خفت من الأمر حقّا ولم تكن لِترى ما أخفيه عنك من إحساس كبير بالخوف.

فجأة أخذت ذاكرتي تفرز الذّكريات المتعلّقة بحسام.

حسام كان معنا في الجامعة وكان في تخصص إدارة اعمال، والده من رجال الأعمال الكبار في البلاد وقد كان دائم الحديث بالأمر لم يكن يهمّه شيء في الحياة سوى النّجاح ومضاهاة والده والأهمّ والأسوأ في الأمر أنّه كان معجبا ومغرمًا بي.

- حسنا عليَّ المغادرة لأنَّه....

لم أكمل ما أردت قوله حين سمعت جرس الباب يرن.

أسرعت لفتح الباب وأنت تقول إنّه حسام.

أجل إنّه حسام الّذي أراد قربي ورضاي أكثر منك.

لم تجرؤ الكلمات على الخروج من فمي وماذا عسى لشخص مثلي قوله، إنْ حسام أحبّني وأنّي فتنت بما له من رزق وكدت أتخلىّ عن كلّ شيء في سبيله.

أجل كدت أخونك.

لكنّي في ذلك الوقت لم أكن سوى شابة صغيرة حالمة، لم تكن تعرف من الحياة الكثير ولم تكن متأكدة ممّا تريده لمستقبلها المال أو الحب.

أعرف أنّي مذنبة نوعا ما.

لكن من منّا لم يذنب يومًا في حياته خاصة إنْ كانت الإغراءات بحجم حسام ولا أبرئ نفسي بقول

هذا فإنّ النفس أمارة بالسوء إلاّ من رحم ربّك.

أصلا لم يكن هناك شيء حقيقيّ بيني وبين حسام غير بعض اللّقاءات التي أردنا من خلالها الانسجام والتأكّد من إمكانية حدوث شيء بيننا مستقبلا.

انصرفت عن حسام بعد هذا بعد أن اقتنعت أنّ لا مكان لرجل سواك في قلبي وأنه لا مكان يسع حسام في حياتي.

حيّاني حسام وجلس على الأريكة المقابلة لي وهو يدرس تعاليم وجهي بنظراته الثاقبة.

جلست قربي وأنت تبتسم وقلت: ***- تعرفان بعضكما ولا تحتاجان إلى مقدّمات ولا إلى تعريف.***

طفت كلّ الأخطاء الّتي اقترفتها في الماضي على السّطح وغدت كالزبد على نهر فائض، وكدت أتأسف لك عن الماضي وأطلب منك السماح على شيء لم يعد له وجود ولم يكن له وجود.

لم أجرؤ على قول كلمة.

حينها سمعت حسام يجيب ويقول: ***- لا تحتاج إلى مقدّمات فثلاثتنا كنّا في نفس الجامعة وفي نفس الفترة من الزمان وقد سبق لنا وأنْ تعرّفنا على بعضنا البعض. اليس كذلك يا هب؟***

حرّكت رأسي وأنا أقول: ***- هو ذلك.***

أحسست بالحرج ولم أستطع التحمّل.

وقفت وأنا أقول: ***- عليّ المغادرة.***

أحسست بيدك تشدّني بقوّة وأنت تقول: ***- ليس قبل أنْ تأكلي شيئا معنا.***

عاودت الجلوس وانصرفت أنت إلى المطبخ لتعدّ لنا ما نأكله.

تركتني معه وفي هذا خطأ لا تدركه ولم تدركه يومًا.

هكذا أنت تثق بسرعة بالآخرين وتحسن الظنّ أكثر من المقبول، وحين تفجع بأحدهم تنتقم أشد انتقام ولا تغفر ولا تعود على انتقامك مهما حدث.

أحب حسن ظنّك وأكره انتقامك.

أحبّ ثقتك وأكره لا مبالاتك.

أحب شجاعتك وأكره غرورك.

من المطبخ وأنت تعدّ الأكل قلت: ***- ما رأيكم بلحم الإبل المقليّ مع السلطة.***

أجاب حسام: ***- و انى لك هذا؟***

أجبت حسام وأنت تضحك: ***- أحد زبائني من أهداه لي.***

أجاب حسام: ***- آه من الجبّد أنْ يكون المرء محاميًا.***

أجبت حسام وأنت تضحك: ***- هههههه تقصد من الجبّد أنْ يكون المرء محاميا بارعا.***

حلّ الصمت من بعدها. انشغلت بالطبخ وانشغل حسام بملاحقة حركاتي وعيوني بعيونه.

لم أستطع النّظر إليه وأحسب أنّه فهم الأمر ولم يخف عليه حرجي منه وممّا حدث في الماضي.

هامسا: ***- لم تتغيّري زادتك السنون جمالا.***

لم أعر قوله اهتماما.

هامسا: ***ـ لا زلت أحبّك وأفكّر فيك على الدّوام أرجوك لا تقدِمي على الزواج بمراد بهذه السّرعة، عليك التّفكير جيّدًا إنّها حياة كاملة. أعرف أنّك مهتمّة به لكن الزواج مشروع يتطلّب منّا الصبر وغفران الهفوات، ومراد ليس من هذا النّوع. مراد لا يغفر ولا ينسى.***

أنا صديقه وأنا أعرف به منك، أنت ترين العلاقة على المدى القريب وأنا أراها على المدى البعيد، أنت ترين مراد بعين محب وأنا أراه كما هو على حقيقته، الحبّ جميل لكنّه يحجب الأفق والكثير ممّا يخصّ من نحب، حين نحبّ لا نرى عيوب الحبيب وهنا يكمن الخطر، انْ لا تستطيع رؤية الحقيقة كاملة يعني عدم مصداقيّة الحكم في العلاقة.

هل كان أعرف بك منّي؟

أنا التي أحببتك منذ الصغر.

هل كان محقا؟

لحظتها لم أعر كلامه أيّة أهميّة.

هامسة: ***ـ ألاَ تعتقد أنّه من العيب الحديث عليه بالسوء ونحن ضيفان عنده في منزله؟ ألا يمكنك الصمت والتستّر على ماض غير مشرف والّذي يجمعنا للأسف أنا وأنت؟***

أخذ حسام يمرّر يده اليمنى في شعره الأسود الحريريّ ويحدق فيّ بعيونه العسليتيْن اللّتين لطالما فتنتا كلّ النساء.

هامسا: ***ـ أنت أطيب وأودع من أن تكوني معه، أنا متأكد من أنّك تلومين دوما نفسك في قرارة نفسك على ما حدث بيننا مع أنّه لم يحدث شيء.***

ولنفرض أنّه كانت هناك علاقة بيننا فهذا من حقّك ولا دخل لمراد في الأمر. من حقّك أنْ تتعرفي على غيره ما دمت لست خطيبته ولا زوجته بعد، أنت لست ملكه بل ملك نفسك فلِما تحرمين نفسك من كلّ شيء في سبيل إرضائه.

بانزعاج همست بغضب: ***- أرجوك حسام توقّف....***

هامسا: ***- ألأنّي محقّ عليّ الصمت؟***

- ليس الأمر كذلك.

- ما هو الأمر إذًا؟

دخلت وأنت تحمل صحنين من الأكل وقلت: ***- عمّا تتحدثان.***

أجابك حسام وكأنّه مازح: ***- هههههه كنت أنصحها بأنْ لا تتزوّجك لأنّك تجيد الانتقام أكثر من كلّ شيء.***

صدّقت بأنّه يمازحك والحقيقة غير هذا.

كان يسرد عليك فعلا موضوع حديثنا.

أجبت بمزاح وبثقة: ***- وهل اقتنعت؟***

- ستقتنع.

أنهيت وضع الصّحون وأنت تتحدّث مع حسام عن الوضع القانونيّ لشركته، وما يترتّب عليه من تحضيرات وأموال للحصول على عقد التكفّل ببناء القرية السياحيّة الخاصّة بوزارة السياحة.

ومع جلوسنا على الطاولة وأكلنا تحدّثتما عن السياسة في بلادنا. ما أرهقني وجعلني أفكّر في أمور أخرى عدّة.

دخلت المنزل في ساعة متأخّرة وفي نفسي خوف من ردّة فعل والدي تجاه تأخّري غير المبرّر، إلاّ بإلقاء نصائحه خلف ظهري ومضي قدما نحو الخطأ واللامبالاة، ولم يأت في خاطري أنّه سيكون حاضرًا غائبًا، أنّه لن يعود بإمكان سماع نصحه أبدًا وأنّ آخر مرة أسمع فيها نصحه كان ذلك اليوم قبل خروجي للقائك.

قبل الخروج من المنزل ذلك اليوم وجدت والدي جالسا في الصالون يتصفّح الجريدة، طلب منّي أنْ أجلس قربه لأنّه يريد قول شيء مهمّ لي.

- هب أنا لا ولد لي سواك أنت خير نعمة أنعمها الله عليّ، وإنْ كنت سأشكر الله الّذي رزقني بك فلا بدّ من الدّهر كلّه، أنت نعم الابنة البارّة بوالديها.

أنت والحمد لله لم تقول لي يوما أف إلاّ بخصوص زواجك من ذلك الشّخص.

لم يجرؤ والدي على ذكر اسمك وأحسب أنّك تعرف السبب.

بغضّ النّظر في الأسباب بغض والدي لك أمر دومًا حيّرني ولكنّني الآن أفهمه جيّدا.

يومها غضبت من الأمر.

اليوم أؤكّد على أنّ أبي محق كلّ الحق في حمله ذلك الشّعور لك، وكأنّه كان يحمل الحاسة السادسة، وتلك الحاسة أخبرته بأنّك ستعرض ابنته لأمور تشيب لها الولدان.

أكره كلّ ما جمعنا أنا وأنت.

أتمنّى لو أستطيع برمجة دماغي ومحو أمور منه.

أنا لا تهمّني أنت كي أمحوك أو أتركك، لكنّي حقا أتمنى من صميم قلبي أن أمحو مسألة أني مشيت ضدّ رغبة والدي.

لا أحد من البشر بلغ مبلغا مهمّا يجعلنا نسمح لأنفسنا أن نعصي والدا مثل والدي من أجله وأنت أبعد ما تكون من الأمر.

- أنا يا ابنتي لا أريد في هذه الدّنيا ومن هذه الدنيا إلاّ سعادتك.

أجبته وأنا أمازحه: ***- أنا أيضا يا أبي لا أريد في هذه الدنيا ومن هذه الدّنيا إلاّ سعادتك.***

ابتسم وقال: ***- أعرف هذا ولم أشك يومًا في الأمر.***

- أنا ذاهبة إذا.

- لم أكمل بعد ما أردت قوله وأتمنّى أن تصغي إلى قولي كلّه.

أنا لا أمانع زواجك من ذلك الشّخص، ولكن تأكّدي أنّي دوما أردت الخير لك ولا خير يرجى منه ولا فيه.

يصمت ثم يقول: ***- أنا دوما أردت لك رجلا يعتمد عليه لا رجلا لا يرى في الدنيا سوى الدنيء منها، ولا يعيش إلاّ على الانتقام وللانتقام إنّه شخص لا يعطى له وجه ولا يأتمن.***

أنا لن أقف ضدّ رغبتك إنْ كنت مصرّة على جعله بعلا لك، حينها ليس لي إلاّ أنْ أوافق عن غير قناعة بل إرضاءً لك.

نصيحتي الأخيرة لك هي أنْ لا تتزوّج به وأنْ تبتعد عنه.

نصيحته الأخيرة.

أجل نصيحته الأخيرة.

هل كان على علم أنّه سيموت.

أحاسته السّادسة أخبرته بقرب أجله؟

لم أتصوّر أنّ والدي سيموت.

اعتقدت أنّ والدي لن يموت.

اعتقدت أنّ والدي سيبقى معي وأنّه لن يموت، على الأقل ليس الآن ليس بهذه السّرعة، ليس بهذه البساطة وهو يصلّي يسجد ويموت، كلّ هذه الأفكار بادرت ذهني في ذلك اليوم.

لم أشبع من والدي.

حقا أنا لم أشبع من والدي لازلت أحتاجه.

وأنا أفتح باب البيت لأغادره متوجّهة إليك أسمع والدي يقول: ***- هب كوني سعيدة في هذه الدنيا ولا تسمحي لأحد أن يهزمك بشرِّه.***

هب كوني طيّبة لا ضعيفة فالدّنيا قاسية، لكنّها أقسى ما تكون على الضّعفاء.

استدرت إليه وإذا هو يبتسم إليّ بوجهه المرح الجميل.

صورته لا تفارق ذهني وابتسامته الحلوة الأخيرة تسكنني.

هل تعمّد أنْ يخلف خلفه وجها مبتسمًا، فيكون من الصّعب على الذّاكرة التلاعب بهذه اللّحظة التاريخيّة ومحوها من العقل؟

لن أقول لك إنّي أتذكّر شيئا من جنازة والدي، فأنا أتذكر منها الشّيء البسيط فقط.

أتذكر أنّي دخلت المنزل ووجدته مليئا بالنّاس الصارخين الباكين، لم أستوعب من الأمر الشّيء الكثير، غير أن أمرًا جللا قد وقع وأنا غير موجودة في المنزل.

خفت كثيرا من الأمر وارتعشت منه وله أوصالي.

تبادرت إلى ذهني أمور عدة ارتجف لها ومنها قلبي.

فكري كان أضعف من أن يفكر في أنّ والدي هو من...

توجّهت أمي من بين الجموع نحوي وهي تبكي بشدّة، حين وصولها إليّ سمعتها تقول بصوت مبحوح أعياه البكاء والنّحيب: - ***هب تعالي معي.***

أخذتني من يدي إلى المطبخ حيث لا يوجد أحد من النّاس، وأجلستني على كرسي وجلست بدورها قربي.

رأيتها تائهة غير عارفة بالطّريقة الّتي تبدأ بها الموضوع.

فقدت إرادتي في الحديث لم أجد مفرًّا لي إلاّ الصّمت.

الصمت كان دوما ملاذي حين اعترتني الصعاب في حياتي، لم أكن من النّوع المقدام الّذي يواجه كلّ شيء دون ما خوف منه ورأسه مرفوعة إلى السماء، كنت من النوّع الّذي يختبئ حتّى تهدأ العاصفة وتنجلي الأمور ليعود للظّهور.

كان أبي رحمة الله عليه ينزعج كثيرا من الأمر ويقلق له، فقد كان قويّ الروح وهكذا كانت أمّي وجميع أهلي. فلِما أنا لم أكن هكذا؟ ولم يدرك أحد من الأهل ولم يتبادر إلى ذهن أحد أنّ الوحش نائم واحتاج إلى من يفجعه في نفسه ليفيق من سباته، وبفضلك استيقظ وأصبح كهلا قبل أن يكون طفلا.

لم أعرف قبل ما فعلته أنّ ضعفي كان مجرّد قشرة ألبستها نفسي، لأبقي نفسي في مأمن من الكلّ وعن الكلّ في حضن من أحبّني وأحببتهم بحق.

كنت أكره ضعفي لكنّه جزء منّي، لقد كان جزءا لا يتجزّأ عنّي ولم أكن لأتخلّص منه لأنّه منّي وفي.

أردت دوما الفرار من ضعفي قبل ما اقترفته في حقي ولم أقدر.

قبل ما اقترفته في حقّي كنت تعرف الكثير عن ضعفي، وقد استخدمته دوما ضدي.

أخذت أمّي يدي بيدها وحدقت فيّ مطولا، أحسست بحزنها العميق يلامس روحي ولم أستطع إلاّ الصّمت أمام كلّ هذا الحزن كما هي عادتي.

اعترت أمّي موجة بكاء شديدة وأجهشت بالبكاء من جديد.

ماذا كان عساي فعله وقتها؟

ربّما أنْ اقول لها هل مات والدي.

بداخلي كنت أعرف من المعنيّ بالأمر.

لم أرد قول أيّ شيء ولا الخوض في الموضوع.

لم أرد استبيان الموضوع والتأكد منه بقدر ما كنت متأكّدة منه.

أردت البقاء والعيش بالشكّ على الموت مجلوطة بالحقيقة.

تماسكت أمّي أخيرًا وقالت: ـ ***هب والدك في ذمّة الله.***

ـ كيف؟

وكأنّه حقا كان يعنيني أن أعرف كيف، والنّتيجة واحدة فوالدي مات ولن يعود.

- وهو يسجد في الصلاة وافته المنيّة.

ألمْ تجد المنيّة غير والدي ذي الستين عاما تأخذه؟

ألم تجد المنيّة غيري تقهره؟

ألم تجد المنيّة من طال بهم الدّهر وهم على الأرض لتأخذهم؟

ألم تجد المنيّة من يستفقدها ويتوق إليها من هول ما يتلقّاه من المحن

فليغفر الرّب لي أفكاري هذه حينها.

أحسست بدموع حارقة على لهفة تتدفّق من عيوني.

أحسست بدقات قلبي على عجل تتسارع في صدري.

أحسست بحرارة شديدة تتصاعد في جسدي.

ورأيت الظّلام من حولي ينسدل كستار وأغميّ عليّ، ولم أفق إلاّ وعدت للإغماء.

مرّ يومان وأنا على نفس الحال لا استفيق إلاّ ويغمى عليّ مرة أخرى.

لم أحضر جنازة والدي ولا ألُوم في الأمر إلاّ ضعفي.

أخبروني أنّك لم تكن في الجنازة ولم أبحث في الأسباب، فالأسباب لن تعيد والدي ولا وجودك سيغيّر من شيء، والدي رحل تاركا خلفه يتيمة تتخبّط في الوجع.

اليوم أيضا أتوجّع ووجعي يجعلني قويَّة لا ضعيفة مثلما وقع في الماضي.

اتصلت بي بعد أربعين يومًا من موت والدي.

اعتقدت أنّك تريد تعزيتي.

كنت مخطئة وخطئي ناشئ من عدم مقدرتي على فهم ما يجول في خاطرك أو لأنّي لم أكن أرى في أعماقك ذلك الشر الكبير الّذي يسكنك.

- أعرف كل شيء.

- مرحبا.

- اعترف حسام لي بكلّ شيء.

لم يكن هناك شيء ليعترف بكلّ شيء.

- عمّا تتحدث؟

- لا تحاول إنكار الأمر فأنا على دراية بالأمر كلّه.

- أنا لا أفهم شيئا ممّا تقوله.

كان فيّ من الحزن ما يجعلني لا أفهم الأمور من حولي ولم تكن لتقدِّر حزني وتفهمه.

إنّ من يفهم الحزن يملك في القلب كمّا هائلا من الحب يجعله يشعر بغيره ويتذبذب لآلام الغير، وأنت لست من هذه الفئة. حبي لك من أعماني وصورك لي بصورة خالية من العيوب وجعلني لا افهمك وأعمى كليا على ما أنت عليه في الواقع.

- بل تفهمين.

- أنا لا أفهم شيئا وأنا أعرف بنفسي منك.

- أنا محيط بكل شيء وقع بينك وبين حسام من سنين.

- من سنين؟

- أجل من سنين.

- من سنين وقع صديقك في حبّي وحاول إغوائي لكنّي لم أستجب له وإن كنت تقصد تلك العزائم التي عزمني عليها فلم أقبل بها إلّا على إلحاح منه وعلى أساس أنّه زميل لا أكثر.

- لكن.

- أنت حرّ تعبت من تبرير كلّ شيء لك.

تعبت منك ومن تصرّفاتك وقرّرت جديا التخلّص منك في تلك الفترة التي تلت موت أبي، حبّا وطاعة له مع أنّ قلبي كان له رأي مخالف.

كنت كمن يحاول بتر يده المريضة لإنقاذ جسده كلّه، لكن ضعفي أقوى من شجاعتي وعاودت مسامحتك في ثالث اتصال لك تطلب فيه السّماح وإرجاع ما كان بيننا من الود.

كلّ ذلك كان مخططًا له لتنتقم منّي وتذلّني.

لم يكن حبّك من كان يدفعك بل غريزة الانتقام.

سامحتك واعتقدت أنّنا عدنا أحبابا كما كنّا.

مرّ على موت والدي ثلاثة شهور وقرّرت جدّتي وابنة عمّتي المجيء للعيش معنا لمؤانستنا على رأي جدّتي.

مجيء الجدّة

جدّتي أمّة من الطراز القديم وفق معايير زماننا هذ، أو بتقدير شبابنا الّذي لا تتعدّى أعمارهم العشرين عاما.

كنت في العشرينات من عمري وكنت أعرف أنّ جدّتي ليست من الطراز القديم بقدر ما هي من النّوع الذي يحسب لكلّ شيء حسابا، وهذا ما يميّز نساء الماضي عن الحاضر وهذا ما يميّز جدّتي أيضا.

أحبّ جدّتي حين تساندني ضدّ الكلّ وأكرهها حين تطبّق فكر الأيّام الخوالي على حياتي وكأنّي من غير زماني.

لا أحبّ طاعة أحد حين لا يكون الأمر في مصلحتي، فأنا لست ممّن يرضي الغير بظلم نفسه أو برمي روحه إلى التهلكة من غير أي سبب واف.

كانت جدتي وقتها دوما تأمرني بالتخلي عنك والبحث عن رجل الزواج منه مضمون ومؤكد، وليس هناك أيّة احتمالية معه بعدم الزّواج ولا أقول إنّ غاية جدتي هي سعادتي؛ بل هي زواج من أجل زواج أو زواج على أعين النساء أو ربما كان دافعها شخصيا بحت تسيره فيها مخاوفها.

مخاوفها من أنْ لا أتزوّج وأبقى عالة على ابنها.

مخاوفها أن تسمع من الناس ما يؤذي مسمعها ويعكر فؤادها، أنّ الكل تزوّج ولم يبق في العائلة سوى حفيدتيها هب وأسماء.

أسماء تلك الحفيدة التي خلفتها ابنتها الوحيدة وراءها جراء حادث سيارة مروع، ماتت هي وزوجها فيه وأصيبت أسماء فيه بالعرج.

دخلت جدتي المنزل ولن يغدو أيّ شيء كما كان.

وقفت مطوّلًا في الصالون مقابلة صورة لوالدي معلّقة على الجدار تتأمّلها وتبكي.

أحسبها بكت الكثير ولم تبقي إلاّ على القليل من الماء في جسدها.

بكت ابنها الوحيد.

بكت غيابه.

بكت اشتياقها له.

بكت حملها له تسعة أشهر وهنا على وهن فمات قبلها وتركها أُمّا ثكلا.

أحسبها بكت عمتي أيضا؛ عمّتي الّتي ماتت قبل أن تسمع كلمة أمّي من فم ابنتها الرّضيعة آنذاك.

بكت ابنتها الّتي ماتت وهي ابنة العشرين ربيعا ولم تذق من الحياة إلاّ القليل القليل.

بكت أمومتها التي لم تعد سوى وهما ووجعا وذكرى من الزمن الغابر.

وهل تكون الأمّ أمّا وولديها الوحيدين تحت الثرى؟

من سيسمعها كلمة أمّي بعد الآن؟

من سيأخذها في حضنه ويقول لها: ***- لا تخاف أنا هنا معك أمّي وسأعينك على الدّهر.***

دوما أحسن والدي إلى جدّتي وسعى إلى أنْ يكون الابن الصالح البار بأمّه لينسيها على الأرجح القليل من مصابها، فلطالما أفجعتها الحياة فيمن تحب وآخر فجائعها ابنتها وصهرها الّذي كان ابن أختها.

أخذت أراقب جدّتي من مكاني دون أنْ أحرك ساكنا أمام ما أراه من الحزن أمامي.

أهذا هو الحزن عينه أم الحزن نفسه أم الحزن وكلّ أهله؟

أكره الحزن وكلّ ما يمد له من صلة من قريب أو بعيد.

ظلّت جدّتي على حالها وظللت على حالي أتفرّج على المشهد وقلبي يتمزّق ودموعي تذرف شلالا، لمّا أحسست بكلّ ذلك الألم كنت أحسّ بصدري

ينخرق بالسيوف، كنت أموت في تلك اللّحظات آلاف المرآت لمَ أنا؟ لمَ جدتي أنا؟ لمَ والدي أنا؟

اندفعت نحوها وعانقتها وأنا أجهش بالبكاء مثلما لم أقدر فعله أناء موت والدي لضعفي الشّديد.

بكت وبكيت مطوّلا.

وهي في حضني سمعتها تقول من بين دموعها: ***- أردت رؤية بكائك هذا للتأكّد من زوال القليل من الحزن عنك، إنّ الدّمع مُطهّر للأحزان يا غالية يا ابنة الغالي.***

- أنا أموت حزنا جدّتي.

- أبكي ولهذا عليك البكاء.

- لم أتصوّر أنْ يموت أبي بهذه السرعة.

- لم أتصوّر أن يموت ابني بهذه السرعة.

- ليتني أنا وليس أبي.

- لا تقول هذا إنّ أصعب شيء في هذه الدنيا هو أنْ يعيش المرء جنازة ابنه وأن يعز فيه. أن يعز في فلذة كبده.

- جدّتي أنا...أنا....

خانتني الكلمات من الألم ولم أقل شيئا.

واليوم حين أتذكّر ما حدث لا تستجيب ذاكرتي لاستعادتي ما أردت قوله ولم أقله.

- لم أرد أن أكون حيّة في جنازة ابني الآخر، تمنّيت أن أموت قبله دفنت نور والآن أدفن عمّار، يا لي من أمّ تعيسة يا لي من أمّ شقيّة.

بعد موت نور دعوت من كلّ أعماق قلبي أنْ لا أعيش الأمر مرّة أخرى ألاّ يتكرّر معي ما حدث مرّة أخرى

تتنهّد جدّتي تنهّدا يتشقَّق لها القلب وتكمل البكاء.

أنسانيّ الموت والحزن وجود أمّي في الغرفة حدّقت فيها فرأيتها غارقة في الدموع وتركتها تبكي شريك حياتها كما أبكي والدي كما تبكي جدّتي ابنها.

أتعبنا البكاء وأرهقنا فنمنا ولم نستفق إلاّ على آذان العصر.

أسرعت جدّتي تصلّي بعد أن توضّأت وذهبت بدوري لأنْ أتوضّأ لأداء مناسك الصلاة.

هكذا كان اليوم الأوّل من مجيء الجدّة بكاء في بكاء.

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ الرّاقي.

أسمع الباب يدق وأفتحه وإذا بالنادل يناولني باقة من الورود ويقول: - ***سيّدتي إنّها لك.***

أشكره وأغلق الباب.

آخذ البطاقة وأفتحها وأرى ما هو مكتوب عليها وأقرأه على مسمع منك: - ***من رضا الى أجمل امرأة في الدّنيا.***

عانيت كثيرًا من أجلك.

والحبّ لا يخلو من العناء.

لا حب دون ألم دون تضحية.

أحببتك مع هذا لم أتصوّر أنْ يصبح الأمر جديّا بيننا يومها.

كنتي أصغر من أن أصدّقك خفت أن يكون الأمر مجرّد نزوة لك نزوة من نزوات المراهقين.

مع هذا أحببتك وسرت عكس التيار من أجلك.

بعدها رحلت تاركا الفتاة البريئة المغرمة بي رغما عنّي فلا أحد يرضى بكسر قلبه، كنت مسيرا يا هب وأنت تعلمين بالأمر ولم يكن اختياري.

التقينا في المستشفى بعد أحد عشر عامًا من الفراق.

كنت في أسوء أحوالك.

استغربت لحالك وخفت عليك كما خفت يوما من حبّك وأن يكون مجرّد وهم.

كان عليّ استعادة هب، هب المرحة الّتي لا تتوقّف عن الضحك والمرح.

هب الّتي أحبّتني دون خوف دون حسابات.

راهنتك على استعادة قلبك مرّة أخرى وجعله ملكا لي كما كان ملكا لي يومًا دون منازع دون مشارك لي فيه.

أصارحك أنّي كنت خائفا أنْ لا أنجح في كسب ذلك الرّهان الّذي كانت فيه غايتي الوحيدة شفاءك وإقناعك أنّ من أحب مرّة يمكنه أن يحب مرّات أخرى ولن يصعب عليه الأمر فقلبه ذاق طعم الحب ولن يتعسّر عليه تذوّقه مرّات أخرى يمكنه أن يحب كما أحب من قبل.

قلبه اختبر الحبّ وذاق طعمه ولن يستجيب للحزن.

اليوم عليّ أن أحدّثك بشيء لم أُطلعك عليه من قبل ليس خجلا منّي ولا ترددا بل ربّما الأحداث بيننا لم تستوجب قوله والاعتراف به أستعاد قلبي ذاكرة حبه مباشرة بعد رؤيتك.

يومها كنت في الممرّ صرخت في وجهك وقلت لك:

ـ ادخلي إلى الغرفة المخصّصة لك.

أثرت غضبي وأنت جالسة في الممرّ تنوحين.

ردّة فعلك أمام صراخي كانت رفع رأسك والتحديق فيّ بتلك العينين الواسعتين السوداويين التين أفتقدهما لأحد عشر عامًا ولم أفكّر بغيرهما.

وقعت في حبّك.

وقعت في حبّك وأثرت جنوني.

لم أعلم أنّ هناك من يمكنه أن يؤذي هب الحسناء الّتي أوقعتني في الحبّ وهي مراهقة.

لم أعلم أنّ من يملك ذلك المقدار من الحسن يمكنه أن يبكي كلّ ذلك البكاء وأنْ يشقى كلّ ذلك الشقاء.

لم أعلم أنّ من الرّجال من يمكنه أن يخون امرأة مثلك.

راهنت على أن أجعلك تحبينني مرّة أخرى.

غايتي كانت شفاءك ولكن الدافع وراء الغاية هو حبي لك.

أحبّك... أحبّك... أحبّك حقّا هب لا أعلم إنْ كنت تقدّرين حجم حبّي لك لكنّي حقّا مستعد أنْ أحميك من كلّ شيء قد يؤذيك حتّى من الحزن.

رضا.

أغلقُ البطاقة وأعيدها إلى الورود.

أراك تحدق فيّ بعيون مفزوعة ولا أهتم للأمر كثيرا فما عاد الأمر يعنيني كثيرا.

آخذ قارورة من الماء لأبلّل بها ريقي الّذي نشف من الحديث عن الماضي.

أعزم عليك وأقول لك: - ***هل تريد أن أطلب لك شيئا.***

تهزُّ رأسك رافضا.

أعاود الجلوس في مكاني وأنا أراك تشعّل سيجارة من النّوع الّذي يدخنه حسام، وقبل أن أقول أيّ شيء تقول: - ***حوّلني حسام إلى مدمن تدخين.***

لا أعلّق على قولك بشيء وأتابع حركاتك وأنت تدخّن بصمت وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: - ***أكنت حقّا تستحقّ حبّي.***

مجيء ابنة عمّتي أسماء

ابنة عمّتي أصغر منّي في السنّ بثلاثة أعوام بالتمام.

ولدت في الرّيف نظرا إلى أنّ عمتي تزوّجت في الريف من ابن خالتها وعاشت بعد الزّواج مع جدّتي لمؤانستها هناك، كون أبي مهندسا معماريا ولم يجد له عملا إلاّ في المدينة ما ألزمه العيش فيها والزواج منها، وما ألزم أخته أنْ تظل مع أمّها وألاّ تتزوّج إلاّ بمن يرضى السكن معها ومع أمّها وهكذا وقع الاختيار على ابن الخالة.

حين زواجهما كان والد أسماء رحمة الله عليه تاجرا يبيع الملابس أمّا، عمّتي فكانت طالبة في جامعة الطب حين رزقت بابنتها، لم تكن تريد الزّواج بعد ولا الإنجاب لكن جدّتي من دفعها بإلحاحها الدّائم وكلامها الدائم عن كل قرينتها اللّواتي تزوّجن عكسها هي.

لم تكن عمّتي تحب زوجها ولكنّها كانت أضعف من كلام أمّها ومشاحناتها ومعايرتها لها بكلّ قريناتها اللّواتي تزوّجن عكسها هي، وعلى الأرجح أن والدي لم يقف في صف أخته.

لقد كان ذلك الزواج في مصلحته في الدرجة الأولى فلو لا ذلك لاضطر هو للعيش في الريف لرعاية أمه، وترك المدينة الّتي عشقها ووجد فيها شريكة حياته أمي.

أخبروني أنّ عمتي جميلة وكانت تحب الحياة وتحلم بالأفضل لكنّها لم تحصل إلاّ على المقدر لها، وهذا كلام جدّتي فهي تقول دوما أنّه لا أحد يأكل في الحياة ومن الحياة سوى مكتوبه. لا أؤمن بمقولات جدّتي فهي دائما ترمي الأسوأ في الحياة والتعاسة بحجّة القدر.

والأمر المحيّر أن مقولاتها الغريبة تصبّ في صالحها دوما.

أكره أمثال جدتي ولا زلت على كرهي مصرّة.

أكان مقدرا لعمّتي أنْ تقهر وتعيش مع رجل لا تطيقه بحجة أنّه مكتوب لها وعليها تقبُّل الأمر دون التفكير ولا المماطلة.

حب التعاسة أنجب أسماء بعد عامين من الزّواج الإجباري.

لم تكن عمّتي سعيدة بابنتها مثلما لم تكن سعيدة بزواجها.

أخبرتني أمّي أنّ عمّتي كانت تبتسم وقلبها يبكي وأنّها لم تر من قبل في حياتها امرأة تحمل من الحزن في قلبها بقدر ما كانت تحمله عمّتي، وحتّى إنّ والدي اعترف يومًا لأمّي، بأنّه نادم على أنّه سمح لأخته بالزّواج وأنّه لو عاد به الزمان إلى الوراء لساند أخته ولو كان الأمر على حساب سعادته.

دوما شبّهني الكلّ إلى عمتي.

لم أرَ يوما وجه الشّبه إلاّ أنْ بدأت أشتغل وأهتم بنفسي.

عمّتي أحبّت الطب أكثر من الدنيا.

أنا أحببتك أكثر من الحياة والدنيا.

كلتانا أحببنا شيئا أكثر من الكلّ والدنيا.

كلتانا لم نفكّر إلاّ بالقلب في حبّنا.

كلتانا لا نفكّر إلاّ بالمشاعر دون حساب العواقب.

لم ترث أسماء هذه الصفة عن أمها فأسماء لا تفكر إلاّ بالزواج محتمل أنّ إعاقتها من جعلها هكذا أو ربّما خوفها من ألاّ تلقى القبول بسبب الإعاقة من جعل الزواج هاجسا وهدفا لها. هي لا أهداف لها سوى الزّواج.

وأحسب أنّ كلام الناس زاد الطين بلّة فكم من مرّة أسمع النّاس أسماء كلمة العرجاء أو اليتيمة الّتي تيتمت وأصيبت بالعرج في اليوم نفسه، أو المسكينة التي فقدت كلّ شيء في يوم واحد....

أحيانا أحسّ أنّنا نحن البشر أجساد دون أرواح وأحاسيس. فكيف لأحد أن يلوم أحدا على مصابه؟ كيف يعاير أحد بإعاقته؟ ولا أحد يجترع همها سواه. لا أحد يعيش توابعها سواه.

كل هذا بسبب حادث سيارة. عمّتي من كانت تقود يومها ولم تكن تجيد القيادة.

لأمّها الكلّ ولم يترّحم عليها إلاّ القليل.

لا أحد حضر جنازة عمّتي لأنّها اتهمت بالتسبب في قتل زوجها ولم يهتم أحد بموتها.

لم تدفن عمّتي مع زوجها لأنّ أهله رفضوا ذلك بحجّة أنّها المسؤولة الأولى عن موت ابنهم. أحسب أنّ عمّتي سعيدة أنّها لم تُدفن معه وهي الّتي لم تحبه يوما من حسن حظّها أنّها لو شاركته القبر لكان الأمر عقابا لها.

يظهر أنّ المكتوب غير موجود إلاّ في الزّواج أمّا الموت فعمّتي المسؤولة ولم يكن هناك لا مكتوب ولا شيء آخر.

تخلّى الكلّ عن ابنتها بمن فيهم أعمامها ولم تجد لها مأوى إلاّ عندنا وعند جدّتي.

تربّت أسماء معي كشقيقة لي ولم ترحل عن منزلنا إلاّ منذ عامين للعمل كطبيبة هناك في الرّيف حيث جدّتي. لم يكن والدي -رحمة الله عليه- راضيا بالأمر لكن مع إلحاحها المستمر استجاب لرغبتها مرغما لا راغبا.

بما أنّه كره الرّيف وأهل الرّيف بسبب ما وقع لعمّتي من ظلم في ذلك المكان لم يرغب أنْ تعود ابنتها إلى هناك، ولكنّها اليوم هنا لتستقرّ في المدينة عندنا ومعنا.

دوما طلب منها والدي العودة ومانعت وبعد أنْ مات استجابت لرغبته. عجيب أمر النّاس لا يأخذون برأيك حيّا ويأخذونه وأنت ميّت.

وهل يهتم الميّت بغساله؟

ليتها فعلت الأمر قبل موته لأسعده الأمر كثيرا.

عادت أسماء إلى منزلنا بعد غياب بعمر العامين وعادت الحياة تدب قليلا في منزلنا، فأسماء من النّوع الّذي يحب الكلام ويضفي على الجوّ نوعًا من المرح مع أنّ كلامها لم يكن يوما يهمّني ففحواه واحد غير متغيّر الزّواج: ***- لِم تزوّجت هذه؟ ولِم لم أتزوج أنا؟.....- لِمَ لا يهتم بي الرّجال؟.....- فأنا جميلة وزد على هذا أنا طبيبة فلما لا أجد زوجا لي..... - أريد أنْ أكمل نصف ديني ولكن إعاقتي من تمنعني...*** تمنيت لو كنت أستطيع أنْ أواجهها وأقول لها: ***- وهل أديت النّصف الآخر لتطمحي إلى أداء النصف المتبقي؟*** هي لم تكن تصلي إلاّ نادرا ولم تكن تؤدّي أيّة عبادة سوى الصيام، وأحسب أنها تصوم مرغمة فلو كان الأمر بيدها لما صامت ولقالت: ***- إنّ الأعمال بالنيات.***

النية لا تكفي في العبادة والحياة على المرء أن يتعب من أجل كل ما يريده ويحبّه، إنّنا نتعب من أجل الحصول على المال أفلا يستحقّ الحصول على رضاء الله مجهودا منّا؟

مضى على مجيء أسماء يومها شهر كامل حين أخبرتني بشيء لم أصدّقه. لهذا لم يهتز له كياني ولم أكن لأُصدّقه فالأمر غير وارد ولا منطقي.

دخلت أسماء غرفتي وطلبت منّي السماح لها بالنّوم معي كون الغد عطلة أسبوعيّة ولن يكون عليها النهوض مبكّرا. ما يعطيها الحقّ بقضاء اللّيل ساهرة تتحدّث وتروي ما وقع لها طيلة الأسبوع.

لم تقل شيئا عن الأسبوع ولا عن الزواج موضوعها المفضّل.

بقيت أسماء صامتة غير عادتها تصغي إليّ وأنا أروي عن مدى حبّي لك.

لم تقاطعني بل أصغت فقط دون أن تعلّق بعدها قالت: ***- هل أنت واثقة منه؟***

تفاجأت من سؤالها: ***- لِمَ هذا السؤال؟***

بعد تردّد: ***- لأنّه يعاكسني يوميّا حين ذهابي إلى العمل وأجد أنّ الأمر غير منطقيّ بما أنّك على علاقة حب معه منذ أعوام.***

- هههههههههههه ولِم يفعل هذا؟

سخرت منها في داخلي ولم أقتنع بقولها.

بجدية أجابت: ***- أنا أيضا لا أفهم تصرّفه فهو يعلم أنّك بمثابة أخت لي ولن أتمكّن من الغدر بك مهما وقع، صحيح أن الزّواج حلمي لكنّي لن أخون من أجل حلمي.***

نظرت إلى عينيها ورأيت الصدق جليا فيهما ولكنّي لم أصدقها لأنّي أحبك لأنّي لم أكن لأستطيع العيش دونك لو صدّقتها.

- هههههههههههه ربّما يمازحك. ضحكت وأنا حزينة لأخفي رعبي أمام أسماء.

- لا مزاح في هذه الأمور هب.

وأمام ذلك الموقف الحرج الّذي وضعتني فيه لم أجد شيئا أدافع به عنك سوى أنّي قلت لها: ***- سأحدثه بالموضوع حين أراه.***

- أطلبي منه أن يبتعد عن طريقي... لا أريده أنْ يكلّمني ولا أن ينظر إليّ لا أريد تحيّته ولا أيّ شيء منه فقط أن يبتعد عن طريقي.

- أف لهذا الحد؟

- إنّه شخص خبيث وحبّك له من يمنعك من رؤيته على حقيقته هو لا يستحقك، أصلا هو لا يستحق أيّ شيء جميل في هذه الدنيا. هو يملك موهبة عجيبة في إفساد كلّ شيء جميل إنّه مريض نفسيّا، تصوّري انتقم من والده أن جعل جدّه يخرجه من كلّ ملكه فغدى بغير مأوى متشرّدا مع زوجته وبناته، ولم يهتم بالأمر وكأنّه ليس والده ولسن أخواته. أي صحيح إنّهن لسن شقيقاته ولكنّهن أخواته، إنّه لا يملك من الرّحمة الشّيء القليل ما إن يخطئ خصمه حتّى يدوسه، حتّى حبيبه إنْ أخطأ

داسه دون شفقة. ما خطبه أنْ فعل هذا بوالده لأنَّه اتهم أمّه وطلقّها أم ربّما ليأخذ كلّ شيء ويبعد والده عن أملاك جده.

- تعرفين مع أنّي حقا أتمنّى الزواج من كلّ أعماق قلبي ولن يسعدني أمر أكثر من الزواج، لكنّ الزواج بشخص مثل مراد لن أرضى به.

- أسماء أرجوك....

تقاطعني: - خالي-رحمة الله عليه- لم يكن يريده زوجا لك ألم تتساءلي لما؟ ... أتعتقدين أنه لو كان شخصا طيّبا لاعترض عليه خالي؟

- لا أعلم... لا أعلم.

- هب أرجوك افتحي عينيك على الحقيقة.

- أيّة حقيقة؟

- الحقيقة الّتي باتت على مرأى الجميع وعلى ألسنتهم.

- إنّ مراد شخص سيّء.

- آه أنت تعرفين حقيقته.

- لما أنت مستغربة ألا يقول الكلّ عن الحب أعمى، فلما تريدينه متفتحا ومبصرا معي؟

- لأنّك ابنة خالي بل أنت أكثر من هذا أنت أختي الّتي لم تنجبها أمّي، لهذا لا أريدك أن تنخدعي بأحد أو تبكي أحدًا أريدك سعيدة.

وقتها كانت سعادتي قربك وشقائي بعدك.

تغيّرت اليوم.

أو ربّما تغيّرت منذ زمن منذ فجعت بك.

مشاهد كثيرة أتمنّى محوها من دماغي كي أكون في أوج سعادتي.

لا أريد من دماغي عرض ذكريات ندمت على أنّي عشتها وجعلت منها ذكرى. وددت لو محوت كل شيء مزعج من دماغي.

أريد أنْ أنسى أنّي سمحت لنفسي أن أقف ذلك الموقف أمام أبي وأقول له بصوت معاند عال: ***- أنا لا أريد أحدًا سوى مراد.*** لو أنّ الزمان يعود إلى الوراء لما جادلت أبي كلّ ذلك الجدال من أجلك.

كنت صغيرة حين أحببتك.

أنا لست ملامة على الذكريات الّتي صنعتها معك.

دوما هدأت من روع نفسي حين تذكرتك بهذا الكلام: ***- كنت صغيرة حين أحببته.***

أريد أن أنسى أنّي لم أوافق أسماء على ما قالته يومها ولم أصدقها إلاّ لأكذّبها أو لأجعلها تتوقّف عن الخوض في الكلام عنك.

هكذا أنا حين أريد أنْ أشتري صمت أحد أصادق على قوله ولو كنت لا أوافقه، وهذا يجعله لا يدخل في شرحات مرهقة فيتعبني ويتعب نفسه دون بلوغ درجة إقناعي، أو أصمت كليّا فلا يعلم رأيي من أصله فلا يكون له إلاّ أنْ يصمت.

كانت أسماء تحدق إليّ بعينيْها العسليتيْن وهي تقول لي: ***- ماذا ستفعلين مع مراد؟ هل ستطلبين منه شرحات بخصوص ملاحقاته المزعجة لي؟***

- سأنام متعبة أنا.

أغطي رأسي وكلّ جسدي في محاولة منّي الهروب من عيون أسماء وتساؤلاتها.

ما عساي قوله لها وأنا الّتي كنت ضعيفة بحبّك تائهة أمامك غارقة في حبّك متأمّلة الزّواج منك؟

لم يكن لي من منفذ غير الاختباء تحت غطاء.

أترى كيف كنت أحبّك؟

قد قلتها لك يوم رأيتك في موعد غرامي كاذب بعد أسبوع من حديث مع أسماء.

ألححت عليك بأنْ نتقابل لأعرف المغزى من تصرّفك مع أسماء.

تقابلنا في مطعم مقابل للبحر.

بقيت صامتة أمامك ولم أجرؤ على البوح بما أردت قوله.

أمّا أنت فقلت لي أنّك جائع وأنّك لم تفطر فانشغلت بالأكل عمّا دون سواه.

كنت أحدق فيك وأنت تأكل بتلك الشراهة الملفتة.

لم تكن لترى أنّي كنت أصارع نفسي وأشجّعها على أن تقول ما جئت من أجله وأنت تلتهم الأكل بتلك السرعة الخياليّة.

أنهيت ووقفت على عجل وأنت تقول: ***- عليّ أنْ أغادر لديّ زبون في انتظاري.***

لم تكلّف نفسك عناء السؤال عن إلحاحي المفرط لمقابلتك.

أنت لم تسألني حتّى لِم أردت مقابلتك على عجل من أمري.

رفعت رأسي ونظرت في وجهك مطوّلا وقلت لك بعد صمت طويل: ***- مراد مهما بحثت فلن تجد أحدا سيحبّك مثلما أحبك أنا.***

ابتسمت ورحلت دون أنْ تجيب.

جلست مطوّلا في المطعم وأنا أفكر بحلّ يجعلنا نتزوج في أقرب وقت فأرتاح من الشك الّذي أدخلته في نفسي أسماء. لم تدخل أسماء إلى نفسي الشك فقط؛ بل الغيرة أيضا كنت أتساءل حينها إنْ كنت تلاحق كلّ النساء أم أسماء فقط.

ماذا عن السكرتيرة هل تغدقها قولا جميلا مثلما كنت تغدقني بالحب والاشعار منذ زمن بعيد؟

منذ زمن جميل لم يكن فيه حسام قد ظهر بعد في حياتنا.

كنت أعتبر حسام ذنبا من الذنوب أو ابتلاء من الابتلاءات العظمى الّتي حلّت عليّ وليس لنفسي عليها قبل حلّت عليّ كعقاب أدفع به ثمن حبّي المفرط لك.

حقا كنت خائفة من أفكاري في ذلك الوقت وعانيت كثيرا بسببك أو ربّما بسبب عدم فصلي بين الواقع الّذي كان أنت والخيال الذي كان ما كنت أراك عليه بقلبي أو ما كنت أريدك أن تكون عليه.

عدت إلى المنزل من الموعد وأنا أجر خيبتي.

دخلت غرفتي وأنا أُدمدم بقول لا أتذكر منه شيئا اليوم بعد مرور كلّ هذه السنين.

دخلت أسماء إلى غرفتي بعد وقت قصير من دخولي واستلقت على سريري وبدأت تشكي لي العمل والمرضى والمصاريف الكثيرة...

أتعبتني كعادتها وتمنيت في سرّي أنْ أقول لها: ***- أحبّك ولكنّي أتمنى حقا أنْ تخرجي من غرفتي لأستريح من هول ما ألقاه من حبّي لمراد.***

لم أجبها إلاّ ببعض الكلمات المتقاطعة التي كنت أسحبها سحبا من بئر نفسي.

أفرغت أسماء ما بجعبتها من أعباء ورمت بها على ظهري بعدها أسرعت إلى غرفتها وهي تتثاءب وتقول: ***- عليّ أنْ أنام جفناي مثقلان من النّعاس.***

وفي سري أجبتها: ***- جفناي ليس مثقلين من النّعاس ولكن روحي مثقلة بالأحزان، حملتني نفسي أعباءً فوق أعبائها فأصبحت حمولتها لا تُطاق. كنت متعبة من ماض لا يعلمه سواي ومن حاضر غير مبشّر بالخير.***

أغلقت أسماء الباب وإذا بالوحدة تجتاحني.

بكيت وبكيت دون توقُّف.

بكيت أبي بكيتك بكيت أسماء بكيت خوفي ومن خوفي...

جفت عيوني من البكاء وأحسست بجسدي منهكا من موجة البكاء فنمت خوفا على نفسي من الانهيار أو الموت من الحزن.

هههههه لقد كنت بسيطة حتّى في مخاوفي في ذلك الزمان.

اليوم خوفي أصبح مخاوف كثيرة تتجسَّد مثلا في خوفي أنْ تحلّ هزة أرضيّة فتقع إحدى شركاتي في الصين، أو ينخفض سعر العملة في أحد البلدان التي أقيمت فيها مصانعي، أو ينهار سعر أسهمي، أو يُغلق أحد البنوك العالميّة أبوابه، أو تحلّ أزمة اقتصادية فأغلق بعض شركاتي، ويكون بذلك متوجبا عليّ التخلي عن الآلاف من عمالي وماذا سيحدث لعائلاتهم؟...

أصبح خوفي اقتصاديّا بحتا ينبعث من اهتماماتي الجديدة بعدما كان إنسانيّا بحتا تشعله الغريزة دون العقل.

أصبح خوفي مهمًّا يعيل الآلاف من العائلات بعدما كان دون أهميّة تذكر.

هكذا هو خوفنا مبنيّ على ما نحن عليه وتغذيه ظروفنا اليوميّة فإمّا يكون سببا لربحنا أو خسارتنا.

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ القديم وأنت جالس فيها على أريكة كالغريب مقابلا لي تلاحق عيوني لتتأكّد من حقيقة ما أسرده عليك من وقائع.

تشعل سيجارة أخرى من النّوع الّذي يدخّنه حسام وأنت تقول:- ***حوّلني حسام إلى مدمن تدخين.***

- حسنا.

- ألف ليلة وليلة.

- ماذا تعني؟

- كانت الأميرة شهرزاد تروي لشهريار ألف ليلة وليلة كما تفعلين الآن معي.

- مخطئ أنت إنْ اعتبرت ما وقع لي بسببك ألف ليلة وليلة بل كان ألف عناء وعناء ألف ألم وألم.

- أتمنّى أنْ تسامحيني ونتصالح فتكون النّهاية بيننا كألف ليلة وليلة أتذكر أنّ ألف ليلة وليلة هو كتابك المفضّل.

- لم يعد كذلك ولن يكون هناك بيننا أيّة نهاية أخرى لأنّ النهاية قد كتبت منذ زمن بعيد وقد عشتها بكلّ تفاصيلها وبكلّ مرارتها.

- هب...أنا حقا أحبّك.

- أنا حقا أحببتك دون شروط دون حدود ودون حتّى رضا أهلي والنتيجة كانت أبشع ممّا تصوّرت أنْ تتركني يوم حفل زفافنا ولا تأتي. أنْ لا يأتي المعازيم وارد ولكن أنْ لا يأتي العريس غير جائز ولا منطقي تحمّلت كل شيء أتاني منك في سبيل قلبي ولكن قلبي كان أضعف من أنْ يتحمّل ما اعتبرته انتقاما واعتبرته إساءة.

- هب... لِم تعيدين إحياء الماضي من جديد؟

- ومن قال إنّ الماضي يموت إنّه حيّ وجزء من حياتنا.

- ولكن....

- إنّ الماضي سبب ما أنا عليه اليوم.

مضت الأيّام بعد ذلك وجئت تخطبني.

كنت حقا سعيدة بهذا.

عام كامل مضى على موت والدي حين أتيت لطلب يدي.

استقبلتك جدّتي كما يستقبل أهل الميت المعزين في الميت.

لم ترغب بك فقد كانت تعرف أنّ والدي لم يرغب بك صهرا مع هذا هزّت رأسها بالقبول حين طلبت منها يدي إرضاءً لي.

أمّي جلست صامتة كالغريب في منزلها لم تقل كلمة واحدة ولم تحرّك ساكنا، أحسبها كانت تفكّر فيما لو كان أبي حيّا بما كان سيجيبك.

أسماء وأنا الوحيدتان اللّتان تحدثتا.

قالت لك أسماء بعد أنْ هزّت جدّتي رأسها بالقبول: ***- مبارك عليك.***

حدقت فيها مطوّلا قبل أنْ تجيب: ***- عقبا لك.***

تحدّثنا ثلاثتنا بعدها عن الأصدقاء وعن العمل دون أنْ نشارك أمّي وجدّتي في الحوار.

كان واضحا أنّك كنت حاقدا على أسماء من طريقة حديثك معها ونظراتك المليئة بالكره وهذا فقط لأنّها فهمت طريقة تفكيرك الغريبة المبنيّة على الانتقام مهما كان الثمن والخسائر المترتبة على ذلك.

احتسينا القهوة وجلسنا من بعدها صامتين نتابع التلفاز وأحسب أنّي كنت الوحيدة السّعيدة في ذلك اليوم الّذي انتظرته لأعوام لوحدي.

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ الراقي وكلانا جالسان فيها نعيد الماضي لنتأذى به أكثر ولنتألم أكثر ممّا تألّمنا به حين كان حاضرا.

أتساءل دومًا عن سبب انزعاجنا من الذكريات المريرة مع أنّها حقّا جزء منّا وجزء مهمّ جدّا أسهم في إنشاء شخصنا وتغيير منطق تفكيرنا إلى الأسوأ أو الأحسن، الماضي من جعل منّي مديرة أكبر الشركات وأنهى تفكيري الساذج.

الماضي من أنهى ضعفي.

الماضي من أظهرك على حقيقتك بعد أنْ جرّدك من أوهامي الّتي ألبستها إيّاك. أنت لم تقل لي يومًا إنّك صالح أنا من توهّمت ذلك أنا من أردتك صالحا وألبستك لباسًا غير لباسك وفي هذا إرهاق لك ولي.

أتعبتك وأتعبت نفسي حين فرضت عليك ما ليس لك ولم يكن لك.

تقاطعني وتقول بأسى: ***- كنت حقا سعيدا في أعماق نفسي ولكن انتقامي جعلني لا أرى سعادتي وما كنت عليه من نعيم فقد كان حبّك لي نعيما لم أقدّره حق قدره وبعد أن انتقمت أردت أنْ أنتقم أكثر وانشغلت بالانتقام عن الحبّ وعن قلبي وعن هب.***

لو عاد الزّمان بي إلى الماضي ما أقدمت على ما فعلته بك.

لو عاد الزّمان بي إلى الماضي لكنت الرّجل الّذي توهّمته ولمَا خيبت ظنونك.

لو عاد الزّمان بي إلى الماضي لتزوّجتك دون أنْ أهتمّ بما وقع بينك وبين حسام.

- ما وقع بينك وبين حسام.

أنت إنسان معقّد لا يرى إلاّ ما يريد رؤيته ويبرّئ لنفسه أخطاءها بتأكيدك لها أنّ الغير من أخطأ أوّلا وأنك لم تكن سوى ضحية الخطء الذي دفع بك إلى الانتقام.

أنت لازلت كما أنت ولا زلت مصرّا على أنّي المسبّب الأوّل للازمة.

لقد أكدت لك أنّه لم يكن هناك شيء بيننا أنا وحسام فلِمَ تصر أنْ تجعل منّي إنسانة خائنة؟ لِمَ تريد أنْ تحط من قدر نفسي أمامك؟

- لَمْ أعني هذا... أنا حقا متأسّف لِما وقع بيننا وأتمنى أن يتصلح كلّ شيء.

- لَمْ يبق هناك شيء بيننا يمكن أنْ نصلحه.

أتعرّف بعد شهر من طلاقك للمياء أحب صديقاتي إلى قلبي لم تجد أحدًا تلجا إليه سواي أتت عندي تطلب السماح وتطلب عونا منّي لأنّك جعلت منها امرأة بائسة، امرأة مطلقة وهي المنحدرة من عائلة لا تقبل الطلاق طردت لمياء من عائلتها وغدت بدون مأوى وهذا كلّه من أجل انتقام تافه.

أنت في انتقامك لم تؤذيني أنا فقط؛ بل الناس المقربين لي أيضا أنت تعمّدت طعني بالمقرّبين إلى قلبي. استغليت فقر لمياء وطمعها فيك وفي مالك لترضى الزّواج بك وتخون صداقتها.

تزوّجت صديقتي بعد أن انتقمت منّي ولم تأت إلى حفل الزفاف انتظرتك لساعات دون أن يحنَّ قلبك وتأتي إلى عروس أعيتها نظرات الشّفقة والأسى.

أنت لا تعرف قدر الألم الّذي أصابني حين فهمت أنّك لن تأتي إليّ في يوم مثل ذلك لقد كنت خائفة من ألّا تأتي وماذا لو لم تأت ماذا سيقع لي؟ ماذا سأفعل؟ ماذا سأقول للنّاس؟ كيف سأواجه النّاس؟ كيف سأشرح لنفسي ولغيري عدم مجيء العريس إليّ؟ هل أنا أقلّ من غيري حتّى يتخلّى عليّ رجلي في يوم زفافي؟ ماذا فعلت لأستحقّ هذا؟

عانيت نفسيّا وأنا أحاول أنْ أفهم لِمَ لم تأتِ إليّ؟

سمعت من الجيران ما لا يحمد عقباه أنّك خطبت أفضل صديقاتي لتتزوّج بها...

أتيت إليك بعدما سمعت من الجيران ما لا يحمد عقباه إنّك خطبت أفضل صديقاتي لتتزوّج بها؛ أطلب منك أنْ تقلع عن فكرة انتقامك وزواجك بصديقتي.

لم تصغ إليّ بالطبع وأنت الّذي اعتبرتني مذنبة قبل التأكّد من الأدلّة حكمت عليّ دون البحث عن الحقيقة.

طردتني وأنت تقول: - ***ذق من نفس الكأس الّذي أسقيتني منه يا خائنة.***

أغلقت الباب على وجهي وبكيت لساعات أمام بابك وأنا أطلب السّماح من أجل شيء لم أفعله حنّ عليّ جيرانك ولم تحن عليّ أنت وتفتح الباب.

استلقيت على بابك من الألم.

قد كان وجع قلبي كبيرًا ولم تقدّره.

انطلق لساني بالكلام من الألم فقلت الكثير ولم أبخل بكلمة من أجل إعادتك.

أتذكّر الكثير من الكلام الّذي قلته لك يومها: - ***سامحني يا وجع القلب ولا تجعل منّي امرأة موجوعة لوجه الله ارحم ضعيفا بحبّك يتخبّط أمام بابك كشاة مذبوحة تنتظر خروج الرّوح من جسدها... أنت روحي والشّخص الذي أعيش من أجله... أحبك فلا تطعني بخنجر الحب... لا تتزوج غيري سأموت إنْ فعلت... أنت كلّ حياتي... لا تسمح لنفسك أنْ تؤذيني... وعدتني بالحب مدى الدّهر فلِمَ تفعل هذا بي... أنا وحيدة من دونك ولست إلّا حجرا في النّهر تعبث به المياه... أنا زورق بدون ربان إنْ تخلّيت عنّي... يا وجع القلب أحبّك سامحني إنْ ظلمتك دون أن أدري....***

كنت خلف الباب أبكي بكاءك ولكنّي لم أقدر على فتح الباب تمنيت لو فتحته وضممتك إلى صدري كنت أجبن من أن أفعل هذا كنت ضعيفا أمام انتقامي كنت حقا غبيا أنا.....

أُغمي عليّ وأُخذت على عجل من طرف أحد جيرانك إلى المستشفى كانت حالتي غريبة لم يعهد لي بها قبل أنْ أكون حزينة إلى درجة تمنّيتُ فيها الموت أمر جديد عليّ أدخلتني فيه أنت.

اسودّت الحياة من حولي من بعدك ولم أَعد أرى فيها شيئا جميلا.

ظللت في المستشفى أتعالج فيه من أحزاني وانهيار جسدي أمام قوّة الحزن الّذي أدخلتني فيه.

لم تتلطّف بي مع الانهيار الكامل بك وبما فعلته بي وتتخلّى عن فكرة الزّواج. تزوّجت وسمعت بزواجك على لسان أسماء في المستشفى أتت إليّ وهي تبكي ضعفي.

لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم يغلبني الدّمع فأصمت.

غرفة فندق واسعة وأنا أنت فيها نعيد الماضي لنتخلّص من عبئه إلى الأبد بعد أنْ يتّضح لنا من منّا أذنب أكثر ومن منّا تمادى في الإساءة.

ـ أتبكين هب؟

ـ وسأبكي مدى الدّهر تلك اللّحظة وذلك الموقف العسير.

كان قد مضى على زواجك بلمياء شهران ومضى على مكوثي في المستشفى ثلاثة أشهر.

ثلاثة أشهر دون وعي كلّي بالواقع.

ثلاثة أشهر من الغياب عن الكلّ وعن نفسي بسببك.

كنت أحبّك بصدق.

لم تعرف كيف تحب من أحَبَّك بصدق.

أتت أسماء إليّ والانتقام غايتها ولم يكن غير ذلك يحملها إلي.

لوحدها دخلت غرفتي ولم يكن من العادة فعلها فقد كانت عادة تحضر مع أمّي أو جدّتي وكأنّها لم تكن لتجد الطريق لوحدها دون مساعدة أحد.

قلبها وغضبها أوصلاها ذلك اليوم إليّ بسرعة دون أيّ مشكل يُذكر أو ربّما قوة إرادتها من أوصلتها بتلك السرعة فقد أخبرتني بعدما شفيت أنّها طلبت من أمّي وجدّتي المكوث في المنزل؛ لأنّ الزيارات ألغيت وأتت تهرول هرولة أرادتني وحدي لتبلغ منّي مبلغا كبيرا في الالم.

كانت تريد رؤيتي.

كانت تريد تلقيني درسا عن الحياة في غياب الكل.

لم تكن ترغب في اسماع أحد ما كانت تتمنى إيصاله لي.

كنت مستلقية.

جلست على كرسي بقربي وبدأت تتأمّلني وهي تهزّ رأسها: ***ـ لهذا رباك خالي يا هب لتنهاري من أجل رجل.***

تصمت قليلا.

- أبوك كان يحبّك أكثر من الكلّ وكان ينتظر منك الكثير لكنّك ما كنت لتمنحيه القليل ممّا أراده منك ولك بفكرك هذا المناف للمنطق والعقل.

أمن المعقول الوقوع في نار الهمّ فقط لأنّ رجلا طالحا خانك أنت حتّى لم تحاول فعل شيء لرفع الأذى عن حالك أنت خيبت كلّ أمالنا بضعفك لا أنت حاولت استرجاعه بكلّ قوّة موجودة فيك ولا أنت تحدّيت حبّك ووقفت وقفة المقاتل الشّجاع أمام الموت، أنت جنحت للحلّ الأيسر وهو المعتاد منك الهروب.

هذه أنت هب والهروب مأواك المعتاد والمعهود منك.

متى ستتغيّرين أم أنّه لا أمل منك.

آه منك يا ابنة الخال.

والدك محظوظ بموته قبل هذا الّذي وقع علينا بسبب مراد وحبّه للانتقام أو ربّما مرضه بالانتقام.

غياب خالي شديد على نفسي أكثر من ذي قبل بعد كلّ ما وقع علينا من همّ جرّاء مرضك الناتج على انهيارك الّذي تسبّب فيه نذير الشؤم مراد، تعلمين هب متعبة أنا ومشتاقة لابتساماتك وأحاديثك المطوّلة عن البلدان والسياحة فيها. كان حلمك أنْ تزور الكثير من البلدان وأنْ تكتب مقالا عن ذلك، اليوم ضاع ذلك التفكير وضعت معه ولم يبق شيء منك سوى الجسد الهزيل الّذي أنهكه البكاء وقلّة المأكل والنوم.

تعبت من الحزن هب أرجوك عودي إلينا.

تعلمين أمّك وجدّتي لا يفعلان شيئا سوى المكوث في المنزل والبكاء عليك وعلى ما آل إليه حالك لم يعد منزلنا كما عهدناه سابقا غدى منزلا مشؤوما لا يسمع فيه سوى النواح والبكاء.

منزلنا الجميل غدا مظلما وكلّما دخلته تاقت نفسي للخروج والهروب منه ومن ذلك الجو الكئيب الذي يسود أرجاءه.

حقا تعبت جدّا أتمنى لو أستطيع الهروب والابتعاد عن الحزن الذي امتلأ به المنزل فلم يعد يسعنا نحن ولم يعد لنا فيه مكان.

يائسة جدّا أنا بسببك.

غاضبة جدّا أنا منك مع أنّي أحبّك يا أخت أنفاسي ولا أتمنى سوى عودتك إلينا من غرقك العميق في بحر الأوجاع.

متى ستعودين إلينا من انهيارك الّذي طال.

وهل مراد حقّا من الرّجال الّذين يستحقون أن ننهار من أجلهم وأن ندفن أنفسنا في الحياة قبل الممات من أجل غيابهم عنّا؟

لا أظن ذلك.

تعرفين ليلى أنا جدا مشتاقة لك بل أنا حزينة جدّا من أجلك بل أنا غاضبة جدّا عليك.

الحقيقة أنا لست قادرة كليا على فهم نفسي.

فأنا ضائعة وتائهة وغير قادرة على الوصول إلى شعور واضح بخصوص موقفي منك.

هل أنا مشفقة عليك أم أنا ناقمة عليك؟

في كلتا الحالتين شعوري ليس شعورا إيجابيا تعتزين به.

فإنْ كان شفقة لئن دلّ على شيء فهو يدل على ضعفك.

وإن كان نقمة لئن دلّ على شيء فهو يدلّ على عدم رضائي عليك وعلى ردة فعلك المبالغ فيها.

الحياة ليست سهلة كما تظنين حب وغرام.

- الحياة أحيانًا حبّ وأخرى أوجاع.

تتوقّف أسماء عن الكلام.

حقيقة أنّي في تلك الفترة الصعبة من حياتي حين كنت في المستشفى لم أكن أحدق إلى أحد ولم يكن يهمّني ذلك لكنّي كنت أُصغي جيّدا للكلام.

لم أحدق في وجه أسماء لأفهم سبب عكوفها فجأة عن الحديث لكنّها لم تطل في الصمت فسرعان ما أتبعته بالبكاء.

بكاء هستيري أخافني حتّى إنّي قلت في قرارة نفسي أتبكيني أم تبكي كلّ أوجاعها الماضيّة والشهداء الّذين استشهدوا.

لأوّل مرّة بعد صمتي الاختياري الّذي دام طيلة مرضي أردت الكلام واشتهيته ولكنّي لم أفعل بالطبع لم أكن مستعدّة الخوض في حديث مطوّل معها تركتها تبكي وأصغيت لبكائها بعدها وقفت وقالت: ***ـ أنا سأرحل من الوطن جاءتني فرصة عمل ولن أُضيّعها من أجل منزل مليء بالتعاسة اختنقت ولم أعد أستطيع تحمل العبء أكثر من هذا.***

ـ أنا سأذهب بعد غد.

أتمنّى حقا أنْ تشفي.

آسفة لأنّي لا أستطيع التحمّل أكثر فأنا جبانة أحبّ نفسي أكثر من الكل وأريد لها راحة البال وقلّة الشقاء وما أريده لن أناله إلّا بالابتعاد عنك وعمّا تخلفينه من عناء لكلّ من يعرفك.

تصمت وأحس بتردّدها ثم أسمعها تقول: ***ـ فكرت مطولا فيما أنّه عليّ أو ليس عليّ اطلاعك على الحقيقة قبل رحيلي وأظن أنّه من حقك معرفة المخفي عنك.***

أحسست زلزالا بقوّة 10 ريختر يضرب في قلبي فتزلزل له روحي وأرفع عينيا إلى أسماء وأحدق في شفتيها وأركّز عليهما مع أنّي حقا كنت متأكدة ممّا ستقوله.

ـ مراد تزوّج من لمياء منذ زمن ولم يعر أمرك من أولوياته.

آه نسيت إخبارك أنّك أمّك قصدته تترجاه ألاّ يتزوّج من لمياء من أجلك وأنْ يشفق على حالك ولكنّه لم يصغ إليها وطلب منها أن تعذره وتخرج من بيته بحجّة أنّ له أعمالا كثيرة تنتظره ما يجعله لا يملك من الوقت ما يكفي للإصغاء لها.

لم تمتثل أمّك لطلبه من أجلك.

وبالطّبع حين أصرّت عليه طردها قائلا أتنجبين خائنة من بعدها تتوسّلين الغير لقبولها على ما هي. أنت أمّها ويمكنك تحمّل أخطائها وضعفها أمّا أنا فلا. على كل أنت المسبّبة الرّئيسة في ذلك لأنّك لم تحسني توجيهها إلى الطّريق الصحيح.

أحسّ بضربات قلبي عنيفة على صدري.

أحسّ بكلّ ما ضاع منّي من تركيز على الحياة يعود إليّ وأحسّ بغضب شديد منك يعتريني أتذل قلب امرأة بالشّوق إلى ابنتها انكوى.

أتستصغر تعب أمّ.

أتذلّ انحناء امرأة من أجل فلذة الكبد.

أتذلّ أمّي أنا.

تغادر لمياء قبل أن أستفيق كليّا.

فجأة أستفيق كليّا ممّا وقع عليّ وأبحث عن أسماء في أرجاء الغرفة ولا أجدها الحقّ بها والغضب ينهش منّي صدري ولا أراها أعود وأجلس القرفصاء في الممرّ قرب غرفتي وأبكي بصوت عال مثلما لم أبك في حياتي.

أرى الأطباء والممرّضين يتسارعون بالتناوب لإقناع بالصّمت والدخول إلى غرفتي وأخذ الدواء لكن بدون جدوى فلا حياة لمن ينادونه.

أظل مطوّلا على الحال نفسه.

ويعجز الكلّ عن تغيير ما أنا عليه من حال فيستنجدون بالشّخص الأقسى في المستشفى المدير فيأتي على عجل من أمره وإذا هو إلى قدره يستعجل دون أنْ يدري.

يقف مواجها لي ويصرخ بأعلى صوت له: ***- هذا مستشفى وليس مأتما أصمتي على الفور وادخلي إلى غرفتك ....***

أرفع عينيا وإذا برجل بالحسن اتسم أمامي واقفا أهو حقّا ذلك الرّجل الّذي رحل عنّي ولم أقدر على نسيانه أهو حقّا من أحببته يوما؟

أراه يحدق فيّ بعمق.

وأتأمله أنا بدوري وأنا صامتة أهو رضا أم رجل آخر يشبهه؟

فالصمت في حضرة الجمال هو الجمال عينه.

يقترب منّي ويجلس القرفصاء على قرب منّي لدرجة لامست فيه أنفاسه أنفاسي واختلط عطره بعطري كان عطره برائحة حلوى الشكولاطة وعطري كان عطرا برائحة الخوخ كان حقّا من الجميل أن يختلط الخوخ وينغمس بالشكولاطة بعد هذا الفراق كله.

يحدّثني برفق ويستفسر عمّا وقع عليّ ودفعني إلى ما أنا عليه من بأس وبكاء.

بهدوء وأنا أبكي أسرد عليه 11 عامًا من عمري 11 عامًا من الحب الّذي انتهى بأن تزوّج من أحب بأعز صديقاتي بعد أن انتقم منّي وجعلني أنتظره يوم زفافنا دون أن يأتي إلي.

أنهي كلامي بأن أقول له إنَّ من أحبّه أذل أمّي وطردها مثلما طردني وأنّي لن أسامحه ولو أطبقت السماء على الارض.

يساعدني على الدخول إلى غرفتي ويعينني على الاستلقاء على السرير وقبل أنْ يغادر يقول: ***- سأراهن على أنْ أجعلك مغرمة بي مثل الماضي وأنْ تحبيني مثلما لم تحب قبلي رجلا فمن أحبّ يوما لن يصعب عليه أن***

يحب مرة أخرى فقلبه أحب وذاق طعم السعادة ولن يسمح للحزن أنْ يشغله عن الحياة.

هكذا كان اللقاء بيني وبين رضا بعد الفراق.

رضا جرّاح بارع ووسيم جدًّا تتهافت عليه النساء ولم يفهم أحد لما اختارني ولكن الأمر كان كذلك أو بالأحرى الأمر مرتبط بماض يشدّنا بحبال من المشاعر لا يعلم بها أحد سوانا.

أصبح أخيرا مقامي في المستشفى مريحا بفضل رضا فقد كان يزورني كلّما أنهى عمله وسمحت له الفرصة وكنت بدوري أنتظره على شوق ولهفة كما كنت أفعل في الماضي حين كنت أقف قرب سيارته لساعات في موقف المستشفى متخفية عن أعين النّاس أنتظره دون ملل ولا كلل فالحبّ أقوى من المشاعر السلبيّة.

حسدتني كلّ الطبيبات والممرّضات اللّواتي تأمّلنه زوجا لهنّ وعاتبنني بعيونهنّ على حبّه لي ولم يهمّني الأمر كثيرا فلا أحد عان ما عانيته من أجل هذا الرّجل ولا أحد يعرف قدر ألمي برحيله عنّي.

دلّلني كثير من الموظّفين في الأيّام الأخيرة من مقامي في المستشفى لأنّي حبيبة المدير وكان الأمر حقا جميلا فقد كنت أُعامل كالأميرة من الكلّ حتّى من المدير نفسه فقد كان رضا يزورني في اليوم خمس مرّات أو أكثر وكان كلّما أتى إليّ حمل إليّ وردة في يده.

يا لغرابة الدنيا واستعجال الأيّام في المضي.

فيما مضى أنا من كنت أحمل له الورد.

كنت أحرم نفسي من التلذّذ بمصروفي لشراء الورد له.

تقابل رضا من جديد مع أمّي وجدّتي وأحبّهما كثيرا وكان الإحساس بالطّبع متبادلا فالقلوب عند بعضها واسترجعت جدّتي ذكرى عمليتها الجراحيّة وشكرت رضا الّذي ساهم في نجاحها وحمدت الله على أنْ وضعه في طريقها في تلك المرحلة الصعبة.

مضت الأيّام على عجل.

شفيت فكما تعلم لكلّ شيء نهاية ولا بد من أنّ لمقامي في المستشفى نهاية أيضا.

جاء رضا إلى غرفتي وهو يحمل وردتين جلس بقربي على السّرير كعادته.

ـ أحبّك هب وأتمنّى حقّا أنْ لا تنسي هذا.

وأنا أضحك: ـ ولِمَ عليّ أنْ أنساك؟ أنا من عليّ قول هذا وأنا أرى كلّ النساء في المستشفى يتهافتن عليك ماذا لو انشغلت عنّي بهنّ... ماذا لو أوقعتك إحداهنّ في سحرها؟

ـ حينها عليك النّظر إلى المرأة والإصغاء إلى عقلك للتأكّد من أنّه ليس هناك من النساء من يمكنها أن تتغلّب عليك وتظفر بقلبي بعدك أنت.

أحسست أنّي أريد أنْ أقول له إنّي أحبّه حقّا ولا أفهم كيف أمكنني أن أحبّه مرّة أخرى بهذه السّرعة وكيف أمكنه أنْ يربح الرّهان في فترة وجيزة لم أقل شيئا وبدأت أحدق في وجهه الجميل وهو يتحدّث عن حالتي وأنّه عليّ المغادرة من المستشفى.

يفهم أنّي مشغولة عنه به وأنّي مركّزة في التّحديق إليه بدل التركيز في حديثه.

يبتسم ويقول: ***ـ هل أعتبر أنّي ربحت الرّهان وأنّك واقعة في هواي؟***

ومتى نسيته كي أقع في حبّه.

لقد كان دائما موجودًا في قلبي لكن حضورك كان يلهيني عنه.

كنت أفرح قلبي بك كي لا يتوجّع به.

كنت أبحث عن السعادة عندك كي لا يطالبني قلبي به.

أنا لم أحبه مرّة أخرى لأنّي أحببته دوما.

بعناد وتكبّر منّي: ***- ولِمَ هذا؟ أنت حقا مغرور جدّا إن اعتبرت أنّي وقعت في هواك بعد أسبوع من مراهنتك على ذلك***

- لنتحقّق من الأمر إذا.

- ولكن كيف نتحقق...؟

وقبل أن أكمل كلامي.

يقترب منّي ليقبّلني وتلامس شفتيه أنفي وأنا لا أقول شيئا.

أنا لم أحاول حتّى أن أعترض على قبلته أو على أنْ أصدّه وأنا الّتي كنت أعترض على اقترابك الشّديد منّي وأنزعج منه.

يبتسم ويقول: ***- هل أعتبر أنّي ربحت الرّهان وأنّك واقعة في هواي من جديد؟***

أصمت من الخجل.

يضع يده على يدي ويقول: ***- أريد أنْ نتزوّج على الفور ولكنّي أعتقد أنّه عليك أن تعمل وتتأكد من مشاعرك وأحاسيسك نحوي قبل الإقدام على خطوة مثل هذه.***

فإن استطعت النجاح في حياتك وبقيت متمسكة بحبّي نتزوج وإلاّ فالأمر لم يكن سوى احتياجا وملء للفراغ الوقتيّ ليس أكثر.

كان رضا بقوله هذا يسعى لإقناعي بالعمل فقد كان يعلم بقدر حبي له ولكن الحب لا يكفي فلابد للإنسان أن يثبت وجوده ليستمتع بحبه وبحياته.

- أن أعمل....

- أجل.

- عرضت على حماك موضوع زواجنا ورفض وأصرّ على التأكّد من نجاحك في العمل والحياة قبل أن نتزوّج وقد أكمل وقال إنّ الكثير من

النساء لو منحنهنّ فرصة للعمل ما تزوّجن وحاولن أن يثبتن ذاتهنّ وبحثن بعد ذلك بالمنطق الحكيم عن الزّوج المناسب.

- والدك ليس راغبا بي.

- الأمر ليس كذلك.

- فلِم يريد التحقّق منّي؟

- لأنّه يبحث عمّن يخلفه في شركاته وكما تعلمين أنا لن أقدر على ذلك فالطب كلّ حياتي أمّا أختي فكاتبة ولا تهتم إلاّ بالخيال والكتابة وزوج أختي الّذي هو ابن عمّي تعلمين لا يهتم إلاّ بالسيارات وسباق السيارات فهو الرّاعي الأول في العالم لسباق السيارات بعد أن كان البطل الأول في سباق السيارات والعمل في الشركة لا يهمّه.

أبي يأمل أنْ تكون من اختارها زوجة مخالفة لنا في الفكر ومميّزة تحمل عنه عبء السّنين من العمل وتريحه قليلا دون أنْ تضيع طبعا تعب السنين ولهذا وضع هذا الشرط لزواجنا.

وأنا قبلت بالشّرط إرضاءً له في كل الأحوال أحبّك وسأتزوجك.

- في كلّ الأحوال... أي أنّك لست واثقا من أنْ أكون في حسن ظنّ والدك؟

- هب أنا لا أريد تحميلك أكثر من طاقتك لأنّي أحبك.

- لا أريد تحميلك أكثر من طاقتك... كنت متأكّدة من أنّك تعتبرني غير كفئة... أنا موافقة على شرط والدك.

- هب....

- لن أتزوّج بك إلاّ إذا أحرزت ما يريده والدك.

- على هذا التقدير لن نتزوّج أبدا.

- يا إلاهي ألهذا الحدّ تحتقر قدراتي.

- الأمر ليس كذلك.

- والدي قاس جدّا فيما يخص العمل ولن يرحمك لأنّك خطيبتي.

- خطيبتك.

- أجل والدي سيأتي لطلب يدك لي غدًا بما أنّك قبلت بشرطه الوحيد لزواجنا.

- في المستشفى؟

- أنت ستخرجين اليوم مساءً.

- حقّا.....

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ القديم الّذي لا تشبع منه العين ولا الرّوح.

وروحي تواقة للجمال وأنت كنت أدرى بها من الغير.

فهل للحبيب القديم ذكرى على ما مضى؟

أنت كنت منّي وتسكن الرّوح ولن أنساك وإنْ غدا القلب لغيرك ينبض.

أعرف أنّ جراحك كبيرة وهكذا كانت جراحي.

كتبت لك يوما كلاما لم أقله لك.

حبّذا لو أصغيت لي لتدرك عظيم مصابي بك منذ أعوام.

أرهقني الزمان بالشّوق اليك.

والحنين إليك لم يجد الطريق.

بحبك أختنق قلبي.

وكدت أموت عطشا بالحبيب.

أدرك أنّ الحب كفاح وموت.

ولكن لهفتي إليك أقوى من الموت.

القلب بك كان يموت وبك كان يعيش.

سمّيتك وجع القلب من حبّي الكبير.

فغدوت وجع القلب بفعلك الشنيع.

الحب إنْ طغى على العقل غدا جنونا.

وإذا بالجنون وجد إليّ سبيلا.

ولم تعد هب هب.

مضت عليّ الأيّام دهرا.

واللّيالي بندى عيوني تبلّلت.

خلتني لن أعود من الوهم.

وإذا بفارس تخلى عني يعود.

أحببتك يوما وأحبّه دوما.

فلِم تريد للقلب العودة الى ذكراك؟

لم يعد الماضي يعنيني بعد أنْ عاد رضا.

أعرف أنّ قولي يؤذيك.

لكنّه الصدق ولا مفرّ من الصدق.

صدق مبك خير من كذب مفرح.

نحن لن نعود كما كنّا.

حتّى يغدو السّفر إلى الماضي فعلا لا نظريًّا.

حينها ستصحّح أخطاءك.

تعرف أن الأمر مستحيلا.

وهكذا غدا حبّك مستحيلا.

عدت إلى المنزل بعد غياب طويل كان الوقت ليلا والفصل صيفا كانت الحرارة شديدة لا توصف، جلست في الصالون على الأريكة واضعة رأسي على كتف أمّي. أحسست بدمعها دافئا يتقاطر على وجهي وبدقّات قلبها المتصاعدة من الفرح تخترق كياني.

ـ ماذا تريدين أكله؟

ـ أيّ شيء تريدينه أمّي.

ـ ما بك هب.

- اشتقت إليك كثيرًا أمّي.

تبكي أمّي بحرقة وهي تقول: ***- خلتك لن تعود؟***

بكت أمّي كثيرا وتركتها تبكي كان لا بد عليها أن تبكي عودتي من مكان مجهول لا تعرف عنه إلاّ اسما واحدا وهو الحزن أو الجنون.

-أعدك أنْ أتغيّر أمّي وأنّي لن أسبّب لك أيّ حزن من الآن وصاعدًا.

- أنت وإنْ لم تتغيّري ستبقين غاليتي الحبيبة وجودك معي يكفيني ويملأ الدنيا من حولي ألوانا زهريّة أنت يا هب شمعة قلبي...

-أحبّك أمّي.

بعد تردّد شديد تقول أمّي: ***- تعلمين أنّ أسماء؟***

أقاطع كلامها: ***- رحلت.***

- من أخبرك؟

- أسماء نفسها.

أرى الاستغراب على وجه أمّي.

- دعينا من هذا... أين جدّتي لم أرها إلاّ للحظة ماذا تفعل؟

- نذرت إنْ أنت شفيت طهت لكل من يسكن الحي لأسبوع كامل.

لم أستطع إلاّ أنْ أبكي.

بكيت وأنا أقسم أنّي سأغيّر حالنا من حال إلى حال آخر وأنّي سأعيد أسماء إلى جدّتي ولو دفعت لذلك روحي الّتي شقيت كثيرا من أجلك ثمنا.

- هل صحيح أنّ رضا سيطلب يدك غدًا ألا ترين في ذلك استعجالا؟

- ربّما.

- ألا ترين أنّه عليك أنْ تتبيّن من حقيقة مشاعرك قبل الإقدام على ذلك؟

- أعتقد أنّي أحبّه.

- الاعتقاد لا يكفي.

- إذا أنا أحبّه فعلا.

- هل في هذا انتقام.

- ممّن؟

-تدرين.

- إن كنت لا تقدرين على النّطق باسمه حتّى فكيف تريدين لقلب موجوع به أن يحتفظ بذكراه فينتقم منه، أنا أحب رضا حبا لا يعرف عمقه سواي لا أدري كيف ولِم؟ لكنّها الحقيقة ولن أقدم على الزواج من أجل الانتقام.

مضى أسبوع قبل أن يأتي أهل رضا لخطبتي رسميّا فقد سافر والده لعقد صفقة ولم يعد إلاّ بعد أسبوع من الخارج.

كان وجها أمّي وجدّتي متهلّلين من الفرح لم أرَ أمّي سعيدة بهذا القدر إلاّ حين حصلت على شهادتي العليا وتخرّجت.

فرحت أمّي بهذا الرّجل الغريب عليها أكثر منك وأنت الجار القريب من الدّار.

لا أفهم لما لم أفرح كثيرا يوم الخطبة فقد كنت غير آبهة وكنت أفكر في أمور أخرى مثل طريقة النجاح في العمل والوسيلة المثلى لإعادة أسماء الى المنزل.

والد رضا: ***- أنا موافق على كلّ الشروط الّتي تحدّدونها.***

جدّتي: ***- لا شروط لنا سوى سعادة ابنتنا.***

رضا: ***- ما هو شرطك هب؟***

- لا شيء.

من الخجل لم أستطع أن أقول أمام الكلّ أنت تكفيني.

أنا لا أريد سواك ولا شيء يهمّني إنْ أنت كنت معي.

أحدّق بأمّ رضا فإذا هي تتأمّلني وتقول: ***- على كل مهرك من حقّك وإن لم تطلبيه أعطيناك إيّاه.***

- شكرًا.

أخت رضا: ***- غدا لديّ مؤتمر صحفيّ بخصوص كتابي الأخير أنت معزومة عليه.***

- تمنيت تلبية دعوتك هانم ولكنّي سأبدأ العمل غدا في الشركة وقد لا يكون لي الوقت الكافي للمجيء.

وبدأت العمل كمديرة قبل أنْ أعلم ما هو العمل من أصله كان الأمر شاقا عليّ ولم أستطع الشكوى إلاّ للخالق.

أنْ أكون مديرة والمسؤولة الأولى من بعد والد رضا كان أمرا مخيفا كما هو حال اليوم الأوّل من عملي في الشركة.

في اليوم الأوّل وصلت إلى العمل على السّاعة السّابعة كنت الأولى إلى الشركة من بعد المدير الأوّل.

أخذني إلى مكتبي وشرح لي بعض الأمور من بعدها طلب من السكرتيرة أنْ تحضر ملفّات الشركة لأدرسها وقبل أن يخرج قال لي: ***- أنا هنا المدير عوني وليس والد رضا.***

خرج وتركني مع المئات من الملفات.

أخذت أتأمّلها وأتصفحها وأنا أقول في نفسي: ***- ماذا فعلت بنفسي؟***

أنهيت ثلاث ملفات من القراءة حين سمعت الباب يطرق.

- ادخل.

كان رضا وفي يده باقة من الورود.

رضا: ***- اشتقت إليك.***

أسلّم عليه وأعانقه وأنا اقول: ***- العمل كثير.***

يجلس على طرف المكتب قربي وأعود للجلوس في مكتبي.

رضا: ***- ليس لديّ اليوم عمليات ما رأيك أن نقضي ما تبقّى من اليوم معا.***

- والدك شرح لي بعض الأمور ومن بينها موضوع الخروج في ساعات العمل إنّ الأمر ممنوع وليس مسموحا به.

- ولكن الأمر يتعلّق بابن المدير.

يدخل والد رضا ويسمع الجملة الأخيرة من قول رضا.

- العمل هو العمل وإنْ كان الأمر متعلّقا بابن المدير رضا.

كان والد رضا صارمًا فيما يخصّ العمل ومبجلا للقانون وهذا ما جعلني ما أنا عليه اليوم.

- أبي إنّها خطيبتي....

- وهنا هي مجرّد موظفة مبتدئة كُلّفت بعمل وعليها أن تنهيه قبل نهاية الدوام وإلاّ فهي ملزمة بالبقاء حتّى بعد الدوام.

- تعلم أنا دكتور ونادرا ما يكون لي وقت أستطيع فيه الخروج من المستشفى.....

أقاطعه: ***- أنا لا يمكنني المغادرة قبل قراءة كلّ الملفات.***

- هب أنا حقا أريد أنْ أعزمك على مكان جميل.

قضيت النّهار كلّه واللّيل بأكمله أعمل في الشركة.

كنت وحدي في الشركة بعد أنْ غادرها الكلّ على السّاعة السّادسة.

على الساعة الرّابعة فجرا غفيت وإذا أنت تناديني وتطلب منّي أن أنقذك في المنام.

سألتك: ***ـ ما بك يا وجع القلب؟***

ـ عطشان جدًّا.

أردت أن أسقيك لبنا وإذا برضا يأخذ الكأس من يدي ويشرب ما فيها.

أردت أنْ أنقذك ولكن لمياء أتت وأعطتك طفلة فانشغلت بها عنّي ونسيت عطشك.

أترى مدى وفائي لك حتّى في المنام لم يهن على قلبي عطشك.

استفقت وتوجهّت إلى النّافذة أطل منها وإذا برضا يدخل وهو يحمل كأسيْن من القهوة.

أحسّ بأنفاسه من خلفي.

ـ أحبّك رضا وأتمنّى أنْ أسعدك....

يغلبني البكاء ولا أكمل قولي.

أحسّ بذراعيْه حول عنقي وبأنفاسه على رقبتي.

ـ وهل لديك شكّ في الأمر.

ـ شك... لا.

يبتعد عنّي.

ـ آه بعد غد العطلة الأسبوعيّة ما رأيك أن تقضيها معنا في المنزل الرّيفي؟

ـ لديّ عمل.

ـ آه....

ـ أجل عليّ أنْ أدرس كل الملفات وأنْ أُحضّر نفسي جيّدا لصفقة الفندق الّذي يريد والدك بيعه من أجل مكسب ماليّ معتبر.

ـ وهل عداك والدي بهذه السّرعة وأصبحت مغرمة بالعمل!

أخاف أنْ تتحول إلى شخص مثله لا هَمّ له في الحياة سوى العمل وجمع المال، ولو سئل عن السبب وراء سعيه لجمع المال لما وجد الإجابة الوافية.

وماذا لو كنت مثله وكنت متخفية خلف حجاب المرأة الضعيفة المكسورة بالحب أخدع النفس بالأوهام والغرام.

هل كنت أخدع هب أم من يحيط بهب؟

هب امرأة ولدت لتعيش بتعبها وذكائها الّذي جعل منها امرأة ذات أجنحة.

أنا كان لدي أجنحة وقد أخفيتها من أجل ألاّ أتورّط بها وأطير بعيدًا عنك كان الأمر بديهيا أنّك دوما أحببت أن تكون حبيبتك أضعف منك وقد رضيت بهذا من أجلك أخذت دورا ليس بدوري في الحياة وأحسب أنّ هذا هو السبب الرّئيس لما وقع.

من أجلك كنت حملا وديعا بدل أن أكون ما أنا وما يجب أن أكون عليه.

ألم أقل لك يوما مالك لا تفقه شيئا أنّك لن تجد من سيحبّك مثلي.

أكره ما كنت عليه حين كنت معك لأنّه التصنّع عينه.

فأنا لست امرأة ضعيفة.

أنا لست امرأة تنتظر المجهول بل تصنعه.

أنا لم أولد من أجل أنْ انتظر حبّك وأنْ أنشغل عن نفسي به.

أنا ولدت لأكون ما أنا عليه اليوم.

غرفة فندق فخمة وأمطار متهاطلة متدافعة تتسارع في السقوط ولمس الأرض.

أستدير لتأمُّل حبّات المطر على زجاج النّافذة.

تمنّيت لو استطعت فتح النافذة وشمّ رائحة التراب المبلّل ووضع يدي في الخارج فتتساقط عليه حبّات المطر.

وضعي اليوم لا يسمح لي بالتهوّر إنَّه يومي ولن أسمح لغرائزي أنْ تُفْسِد عليّ هذا اليوم.

ـ أتعتقدين أنّي كنت أحبّ ضعفك حقًّا؟

ـ كنت تبجله.

ـ كنت خائفا أن أفقدك لو فردت أجنحتك وهذا ما وقع.

ـ هذا ليس ما وقع لم يكن فراقنا سببه العمل والطموح؛ بل الغدر والمرض بالانتقام أنت تزوّجت بأحب صديقة إلى قلبي وأنجبت منها ابنة وسمّيتها بالاسم الّذي أردت أنْ أسمي به ابنتنا الّتي لم تأت ولا أريدها أنْ تأتي.

دومًا أردت أن ننجب ابنتنا ونسمّيها مهى نسبة إلى الحرف الأوّل من اسمك واسمي.

حتّى في اسم ابنتنا الّتي ماتت مع موت حبّنا أردتك الأوّل أردت أن أسمع رنين اسمك في اسمها.

ـ أرجوك لا تقدم على ما أنت مقدمة عليه اليوم، امنح حبنا فرصة واحدة.

في اليوم الّذي ولدت فيه ابنتك مهى انتهى كلّ شيء ودفن الحطام المتناثر من حبّنا الّذي ولد من جهلنا بالحياة وصغر عمرنا.

ليتني لم أنشغل بك وانشغلت بالعمل.

ضاع الكثير من عمري في الهوى والكلام الّذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

كان قد مضى على عملي في الشركة أربعة أشهر يوم ولادة مهى.

أربعة أشهر من العمل الدّائم ليل صباح جعلتني أفهم كل شيء عن العمل وطبيعة عملنا وأنْ أجلس على طاولة الاجتماعات ليس مع المدير؛ بل على كرسي المدير تحمّلت كلّ شيء في سبيل أنْ أحصل عل كلّ الصفقات وأنْ لا يضيع منّي شيء. أحبُّ أنْ أكونَ الأفضل وألاّ يتفوّق عليّ أيّ أحد في طاولة الاجتماعات للحصول على صفقة معيّنة. الأمر كان يخيف كثيرا رضا فقد فهم أنّ والده وجد ما أضاعه فيه وفي أخته هانم وأنّه أحبّ شخصا أكثر حرصا على العمل من والده.

بالطبع العمل زاد على عاتقي وتذمّر رضا فاق الذروة وإعجاب والده بذكائي جعل منّي المسؤولة على كلّ شيء في الشركات رسميّا الأمر الّذي أراح والد رضا وأرهق الابن المحب للدلال وأنْ يدلّل من خطيبته.

كان جالسا على المقعد الأماميّ في سيارتي مسترخيا بعد أنْ رضخت لمتطلباته بأنْ نسافر معا لقضاء عطلة رأس السّنة في باريس بعيدًا عن الجراحة وإدارة الأعمال.

- أحبّك حين تجيبين بنعم بدل الدخول في الشرحات والحجج. سأعمل...

- عليّ الحصول على الصفقة... لديّ اجتماع مهمّ مع الوزارة ... والدك كلّفني بعمل مهمّ ولن أبرح الشركة إلى حين أنهيه كليّا ... يا إلاهي وأنا الّذي كنت أقول إنَّ الجرّاحين دوما مشغولين.

أضحك من أعماق قلبي وأقول: ***- حبيبي ألا تريد الإصغاء لأغنية بدل الإصغاء لأفكارك المتعلّقة بعملي وانشغالي الدّائم أصبح الأمر هاجسك الأوّل في الحياة.***

أحاول إشعال المسجل وإذا بيده تأخذ يدي.

- لا لا... أحب أنْ أسمع صوتك أنت أريد أنْ أتحدّث معك أنْ أرى شفتيْك عيونك أنْ....

أقاطعه***. - لا لا أريد شعرًا ... أحبّ رضا الجرّاح الّذي يتحدّث عن الجراحة لا أريد منك شعرًا أحبّك أنت وكلامك عن طريقة جراحتك لهذا وذاك....***

يبتسم ويقول***: - أنتِ حقًا غريبة ألا تحبين الغزل؟***

- لا لا أريد شعرًا ولا غزلا يكفيني رضا.

أراه يتأمّل الخارج وأركّز على القيادة.

بعد وقت طويل من الصّمت.

- هب أنا سأكون مشغولا جدًا في العمل وأعتمد عليك في تحضير كلّ شيء لسفرنا.

- حسنا مراد.

- حسنا مراد... هب أنت لم تنسيه هو دوما هنا معنا في فكرك... يا إلاهي.

- لِمَ أنت غاضب إلى هذا الحدّ؟...أنا..

يقاطعني: ***- أوقف السيارة.***

- رضا أرجوك.

يصرخ***: - قلت لكي أوقف السيارة على الفور.***

- رضا أرجوك الأمر ليس كما تظنّ أنا....

ينزل دون أيّة كلمة دون أنْ يصغي إلى ما أردت أن أقوله له.

يوقف سيارة أجرة على عجل ويرحل.

هكذا هم الرّجال حين نخطئ في حقّهم بقصد أو دون قصد تكون الإجابة سريعة وردّة الفعل عنيفة.

غدا اسمك لعنة تلحق بي دون أنْ أدري.

لم أفعل أيّ شيء حيال ما وقع فقط اتصلت واتصلت به ولكن دون فائدة فلم تلق أيّ اتصالاتي الرد.

بعد يومين قصدت المستشفى وأنا أحمل باقة ورد أحمر بطولي مربوطة بشريط أحمر.

فتحت باب مكتبه ووجدته جالسا يلعب بقلم في يده وهو يقرأ كتابا.

يرفع رأسه ويراني.

يقف ويقول: ***-أنا مشغول جدًّا....***

- ليس صحيحا ولو كان الأمر كذلك لِم سمحت لي السكرتيرة بالدخول.

أمدّ له يدي لأمنحه الورد فيشيح بوجهه رافضا.

- مراد سعيد مع زوجته يتمتّع بالحياة معها وأنا وأنت ننشغل به ونحطم حياتنا من أجله أهذا ما تريده يا رضا؟

- أنت من تردينه وليس أنا. حين تخلطين بين اسمي واسمه.

- ألم تتساءل لِمَ لم أخطئ سابقا؟ وأخطئ اليوم بعد مضي كلّ هذا الوقت.

يستدير وأفهم أنّ غضبه قد هدأ نوعا ما.

يقترب منّي حتّى أشعر بأنفاسه ويحدق في وجه.

- لِمَ؟

- لأنّي لم أعن مراد الّذي فكّرت فيه؛ بل فقط مراد الموظف الجديد الّذي كلفته مؤخّرا بدراسة صفقة مصنع الحديد الّذي أغلق من أعوام والدولة تريد بيعه الآن ويظهر أنّنا لسنا الوحيدين المهتمَّيْن بالشراء.

هناك شركة أجنبية مهتمة بالموقع الاستراتيجيّ للمصنع وتريد شراء المصنع لبناء فندق مكانه.

آسفة فدماغي لا يتوقّف عن التّفكير في الصفقة وبما لا بدّ أن أشرحه لمراد وما يجب عليّ أنْ أطلبه منه في الدراسة.

أيّ خطء قد يكلّفني خسارة هذه الصفقة الّتي حلم بها والدك من زمن.

لن أسمح لنفسي أنْ....

يقاطعني: ***- مراد مجرّد موظف.***

- ألم يهمّك في قولي سوى التافه منه؟ ماذا عن الصفقة والملايين الّتي قد نربحها لو وقّعنا العقد؟

- الأمر يهم والدي لا أنا... ما يهمّني في القضية هي هب.

- حسنا. هل زال الغضب عن نفسك؟

يقترب ويأخذ باقة الورد الّتي وضعتها على مكتبه.

- هل يعني هذا اللّون أنك مغرمة جدّا بي؟

- أكره تحوّلك إلى مراهق ينتظر الدلال وكلمات الحبّ ليفرح بها نفسه.

- هههه يا لك من قاسية... وأو كيف حملت هذه الباقة إنها ثقيلة جدّا).

- فيها مئة وردة بطولي تقريبا.

يحضن الباقة وهو يقول: ***- أحبك.***

- عليّ المغادرة لديّ عمل كثير.

- بهذه السرعة.

- الوقت كالسيف إنْ لم تقطعه قطعك.

ليست كلّ الصفقات مربحة وليست كلّ الصفقات مقدّرة لنا

صفقة مصنع الحديد صفقة العمر هو قول المدير عوني.

بذلت كلّ مجهودي.

النّتيجة كانت سلبيّة حتمية.

تلقيت اتصالا من الوزارة مفاده أنّ عرضي مرفوض لم أتحمّل الأمر خاصّة بعد أنْ رأيت ردّة فعل المدير العنيفة.

كان جالسًا بقربي ينتظر الاتصال متحمّسا.

أقفلت وقلت له بأسى: - ***عرضنا لم تقبل به الوزارة.***

احمرّ وجهه واسود ومن ثمّ قال: ***- ربّما لم يكن عليّ الوثوق بك لدرجة أن أعتمد عليك في هذه الصفقة بالتّحديد.***

حمل المدير نفسه وغادر من دون أن يزيد كلمة على ما قاله.

أحسست بالحزن يكتم على أنفاسي.

- ماذا علينا أن نفعل سيدتي؟

نسيت أنّ مراد كان موجودا معنا ونحن ننتظر المكالمة.

تعبت من الحياة القاسية الّتي لا تريد أيّ شيء سوى المعاندة معي. أصبحت أحس أنّ الحياة حصان وحشيّ أراوده فإذا هو يغدو متوحشا أكثر من ذي قبل ويوقعني من على ظهره كلّما حاولت ترويضه.

- لا شيء... نحن لن نعمل أيّ شيء... نحن سنرضى بقدرنا... نحن سنرضى بقساوة الدنيا ونستسلم لها هذا ما كان عليّ أن أعمله من الأوّل... لمَا حاولت مجابهة الحياة الّتي قررت أن تحزنني وأنْ تأخذ منّي كلّ ما أريده.....

يقاطعني: - ***سيّدتي هل أنت بخير؟***

أستدير نحوه وأنا أبكي: ***- أخرج... أخرج لا أريد أنْ أراك ولا أنْ أسمع باسمك الّذي غدا نذير شؤم لي مراد لن أسامحك.***

بالطبع كنت أقصدك أنت.

- سيّدتي هل أنت بخير... أنت شاحبة جدًّا.

- أخرج... أخرج من حياتي.

أراه يفتح الباب ويخرج على عجل.

أحسّ بدوار شديد وأرى المكتب يتحوّل إلى صالة حفلة زواجنا الّذي لم يتم.

عاد الزّمان بي إلى الماضي وجلست في الصالة وحيدة بعد أنْ غادر المعازيم الّذين فهموا ما وقع قبل أن أفهمه أنا.

بقيت وحيدة على الكرسيّ المعد خصّيصا لنا.

بكيت وبكيت...

احترق فؤادي من الألم يا مراد يومها.

رأيت أمّي وجدّتي وأسماء في الصالة يحدقن بي والدّموع تذرف من عيونهن.

ماذا فعلت كي أستحق هذا؟

أنا امرأة فعلت كلّ شيء من أجلك.

استلقيت على الأرض وبكيت وصرخت.

تلطّخ فستاني الأبيض ولم تراني به بعد.

رأيت أسماء تقترب منّي وهي تحمل حقنة.

كان مهدئ من بعدها بدأت أفقد وعيي شيئا فشيئا وأنا في حضن أمّي.

سمعت أسماء تطمئن أمّي وهي تقول: ***-اتصلت بالإسعاف سيصلون قريبا.***

لم يكفك كلّ هذا وتزوّجت بلمياء.

أكنت تريد ذبحي بالألم؟

كما هو الحال كلّ الطرق تؤدّي إلى روما فإن كلّ الآلام تذكرني بك يا وجع القلب.

عادت ذاكرتي إلى الحاضر وإلى الصفقة والمكتب.

أخذت مفاتيح سيارتي والمعطف وأسرعت إلى سيارتي.

كان عليّ أنْ أهرب من فشلي الّذي يذكّرني بك.

أردت أنْ أراك وأسألك عن نوع الإحساس الّذي أحسست به بعد ما فعلته بي.

أحسب أنّ إحساسك كان بعيدا كل البعد عن إحساسي.

كان لا بدّ أنْ أسمع الطرف الثّاني الّذي هو الخصم.

ركبت السيارة وقدت وأنا أبكي بحرقة والدي ووالد رضا الّذي خاب ظنّه بي بعد إعطائي الصفقة للغير بدل أنْ أهتم شخصيّا بالأمر فمراد موظّف جديد في هذا المجال وكان جليّا أنْ نخسر فنحن لم نعد للأمر عدته.

وصلت إلى العمارة حيث تسكن وترجلت ووضعت نظرات شمسيّة.

صعدت الدّرج على عجل ووقفت أمام بابك مقابلة له أتأمّله.

الألم من أتى بي.

كلّ آلامي غدت بوجهة واحدة وتذكّرني بشخص واحد هو أنت.

وقفت أمام بابك مدهشة أتذكر قسوتك، طردك لي، جفاءك وإذا بالدموع المكبوتة لخسارة الصفقة تنطلق منهمرة.

لا أستحق أن أخسر مرّة أخرى هذا ما أتى في ذهني.

لا يحقّ للألم أن يزور أوصالي فقد أخذت منه جرعة كبيرة تكفي الدّهر كلّه.

سمعتك وأنت تستعدّ للخروج تقول للمياء: ***- يا نرجس قلبي لا تنتظريني على العشاء لأنّي سأتأخر نوعا ما.***

أهديتها الاسم الّذي ناديتني به دومًا.

ألهذا الحد بلغ بك الأمر والانتقام.

أم ربّما ليس الانتقام من بلغ بك هذا المبلغ بل الحب.

فأنا لم أكن معكما هناك لتسعى للانتقام.

سمعت خطواتك تقترب أكثر فأكثر من الباب فأسرعت للاختباء.

رأيتك من حيث لا تراني وأنت تغادر منزلك كما غادرت يومًا قلبي.

ضاع عمري في حبّ لا نفع منه.

جلست على الدّرج أبكي عمري والصفقة الكبيرة الّتي ضاعت من يدي بسببي.

وقفت وغادرت وأنا أبكي دومًا كلّ شيء ضاع منّي.

غرفة فندق واسعة معدّة خصّيصا لي من طرف أفضل مصمّم عالمي.

ليت والدي هنا ليرى ما بلغته بجهدي وتعبي.

لم يعد أبي هنا معي.

لم يعد النّعيم الكثير يبهرني فقد اعتادت عليه نفسي وعينيا.

لم تكوني لوحدك ذلك اليوم قرب البحيرة.

كنت واقفا معك ليس بعيدًا منك.

رأيتكِ من الشّقة وأنت تنزلين من السيارة.

تظاهرت أنّي أُنادي لمياء بنرجس قلبي لإغاظتك فقط لم تكن لمياء في المنزل كانت المشاكل بيننا أكبر من أن نبقى في بيت واحد أنا وهي.

ألم أقل لك يومًا إن ابتعدت عنك ستظلّين المرأة الوحيدة في قلبي وتعلمين مدى صدقي فيما أقوله.

أنا لم أحب يوما غيرك.

لمياء كان سيفا بيدي لقتلك وللانتقام.

ويظهر أنّي لم أُحسن توجيه السيف فقد غرزته في قلبي معتقدًا أنّي غرزته في قلبك يا نرجس الرّوح.

قلبي لا ينبض ولم ينبض إلّا لك.

انتظرتك حتّى خرجت من الشقة ولحقت بك في سيارتي.

وقفت أحدّق فيك وأنت تتأمّلين البحيرة وتبكين.

تمنّيت أن أقترب منك وأخذك في حضني وأهدئ من روعك ومن روع نفسي المشتاقة إلى رائحتك الجميلة ولك. أحب رائحة الخوخ الّتي طالما انبعثت منك.

أحبّك أنت.

أحبّ جمالك وغرورك وقساوتك.

أردت الاقتراب منك لكنّي لم أفعل كنت خائفًا من الصد.

بعد وقت أتى ذلك الرّجل الغريب وأخذك في حضنه.

أصبح الغريب أقرب منّي.

لم يعد هناك هب بقدر ما أصبح هناك مديرة الاعمال.

فقدنا الصفقة لأنّي لم أحسب للأمور حسابا جيّدًا.

خرجت من شقتك وأخذت السيارة وانطلقت بها في شوارع العاصمة وأنا غاصبة أبكي.

فهمت أنّي لم أكن أبكيك بل كنت أبكي كبريائي أمام بابك فلم يعد هناك مكان لك في قلبي.

أنا هب مديرة أكبر الشركات وكبريائي لا يسمح لي أنْ أخسر.

أنت جعلتني أنزف في حرب لم يكن منها أيّ نفع.

سمعت الهاتف يرن.

أجيب وإذا برضا غاضب يقول: ***- لِمَ لا تجيبين على اتصالاتي ... أتريدين قتلي بجلطة... أخبرني مراد بما وقع ... أين أنت الآن وماذا تفعلين؟***

ببكاء أجيبه: ***- فقدت الصفقة سيهدم المصنع ولن يعود هناك عمل لعدد كبير من العمّال.***

- ليست كلّ الصفقات مربحة وليست كلّ الصفقات مقدّرة لنا... حبيبتي الطيّبة التي تهتمّ بالكل أكثر من اهتمامها بنفسها أين أنت؟

- ليس مهمّا أن أكون طيبة إن لم أستطع مساعدة عمّال هذا المصنع ... أنا حزينة جدًّا رضا.

- أين أنت سأوافيك على الفور.

- اتصلت بك قصدتك في المستشفى... كنت وحيدة مع ألمي... أردت أنْ أكون معك وتواسيني لكن.....

يقاطعني: - هب أنا جرّاح وأنت تعرفين هذا أنا لن أتمكّن من مواساتك كلّما أردتُ أو أردتِ أنت ذلك... حياتنا ستكون هكذا ولذا عليك أن تكوني أقوى من هذا... أنا أغلب حياتي سأقضيها في غرف العمليات واعلمي أنّ ما تلقينه اليوم وترينه من ألم هو أمر هيّن أمام ما يلقاه النّاس من المرض... تعلمين هب ما معنى العلاج الكيميائيّ إنّه الاحتراق بمعنى الكلمة... ليتك تعلمين قدر الألم الّذي تحسُّ به الأمّ وهي ترى صغيرها يتعذّب من السرطان... عليك فهم الحياة أكثر حبيبتي... وعليك إعادة تعريف الأشياء بمفهومها الحقيقيّ... أنا جرّاح وعليّ مساعدة هذه الفئة ولا يحقّ لي أنْ أتخلّى عنهم بسبب مشاعري... على كل ما هي إلاّ صفقة... أفهم أنّ أبي غاضب منك فالأمر مهمٌّ جدًّا بالنّسبة له؛ لأنّه شخصيٌّ نوعًا ما ويتعدّى منظوره كعمل سيدخل الأرباح.

- رضا....

يقاطعني: ***- أين أنت....***

أوقف السيارة وأنزل وأتّجه نحو بحيرة سيرة.

- هب أين أنت؟

- على الضفة الجنوبيّة من بحيرة سيرة.

- حسنًا سأكون هناك سريعا... مسافة الطريق.

يقفل الخطّ.

لا أعرف لما أضخم الأمور ولما تألّمت من أجل تلك الصفقة كثيرا.

فهي مجرّد صفقة ولا يتعدّى الأمر ذلك.

أقف أمام البحيرة أتأمّلها ويديا في معطفي.

لا أدري كم طال وقوفي.

أحسبه طال دهرًا كاملا.

أحسّ بيدين تغمرانني بالحب تطوقان عنقي.

أحسّ بجسد رضا واقفا من الخلف يلامس جسدي.

- رضا.

- إيّاك والبكاء.

- هل والدك بخير.

- أعتقد... لا أدري حقًّا... أخبرتني أمّي أنّه منذ أن عاد إلى البيت هذا الصباح وهو مقفل على نفسه في المكتب لا يريد محادثة ولا رؤية أحد.

- أنا قلقة عليه.

- أنا متأكّد من أنه سيتغلّب على الأمر... أتمنّى ذلك.

أدور وأقابله.

- ما بك هب؟

- أحب رؤية وجهك فرؤيته تزيل عن قلبي ما فيه من الكدر.

يضحك حتّى أرى أسنانه الخلفيّة.

يا له من رجل قويّ وبسيط في الوقت نفسه.

غادرنا المكان وأخذ كلّ واحد سيارته عزمني إلى منزله لكنّي فضلت العودة إلى منزلنا.

دخلت المنزل لأجد أمّي تشاهد فيلما كما العادة.

- أمّي أين جدّتي؟

- في غرفتها تُحدِّث أسماء.

انتفض قلبي انتفاضة اهتزّ لها جسدي كله.

أسرعت وجلست على الأريكة المجاورة لأمّي.

- أمّي وهل أسماء معتادة على الاتصال بكم أو بالأحرى بالجدّة؟

- لا هي أوّل مرّة.

- أوّل مرّة وهل.....

تقاطعني أمّي: ***- تحدّثت معها وهي بخير ولكنّها لم تسأل عنك أحسبها دوما غاضبة منك.***

- أحسبها دوما مرهقة ممّا حدث معنا ولن تستعيد طاقتها الإيجابيّة إلاّ بعد زمن... لم أعرف قبل ما وقع لي أنّها أنانية للغاية... على كل الأمر طال وعليّ إيجاد حلّ لإرجاعها.

- هي لن تعيش الغربة طيلة حياتها.

أحدّق في أمّي وأتنهّد: - أنا حقّا متأسّفة أمّي ممّا وقع.

أتوجّه إلى غرفتي.

- ألن تتعشي معنا؟

- لا أنا متعبة وأودّ أنْ أنام.

استلقيت على الفراش وأنا أسترجع وقائع كثيرة من حياتي واستوقفتني ذكراك كالعادة حاولت تجاهلك ولكن دماغي أبى أن يطيعني.

أنت كنت أهمّ شخص في وجودي ولن أتمكّن من قطع كلّ الحبال الّتي تصلنا.

حاولت أنْ أكرهك ولم أفلح وأعرف أنّ الأمر يزعج رضا ويؤرّقه لكن ليس باليد حيلة أنت لم تكن فقط الحبيب لعبت أدوارا كثيرة في حياتي كنت رفيقي... زميلي... صديقي... كاتم أسراري... وحبيبي.

لا أقدر التخلص منك و استخراجك من ذهني وإنْ أردت لأنك لعبت أدوارا عديدة في حياتي.

أفتقدك كصديق.

حرّمتني من أعزّ أصدقائي أنت ولمياء.

أخذت منّي الكثير ولن أستطيع مسامحتك.

لم يغمض لي جفن وأنا أحاور نفسي وأجاهدها على التخلّص من ذكراك وممّا يربطها بك.

أسمع الآذان ومن بعده صوت خطى جدّتي وأمّي.

الصلاة خير من النّوم.

أنا لم أنم على الاطلاق.

أصلّي وأعود إلى فراشي عساني أنام ساعتين قبل الذّهاب إلى العمل.

يرنّ الهاتف وأفزع فمن يتصل بي على الرّابعة صباحًا.

وقبل أنْ أُجيب أرى أمّي وجدّتي مفزوعتين تدخلان الغرفة على عجل.

أمّي: ***- خيرا إنْ شاء الله... يا رب استر...***

وهل يستعجل الخير في مجيئه هو مدلّل كأصحاب المقامات العاليّة لا يأتي حتّى تستعجله وتترجّاه وتنشده بالغوالي والأحباب... إنّه ليس خيرا وهذا بديهي.

جدّتي: ***- أسماء أهي أسماء حفيدتي.....***

حفيدتك لا تتصل بي نهارًا أو تتصل بي ليلا هذا غير منطقي.

- إنّها هانم أخت رضا....

أرى جدّتي تتنفّس الصعداء وأفهم موقفها المُحيّر.

جدّتي لا تهتم لأحد من غير أسماء وأنا، وكأنّ الغير ليسوا ببشر. على كل موقفها واضح منذ زمن بعيد ولا حاجة لها للتنفس لأفهم عدم امتلاكها

للعاطفة الإنسانيّة الّتي تتمثّل في أن نحسّ بالغير وإنْ لم تربطنا بهم أيّة صلة دم أو قرابة.

وهي تبكي: ***- أبي أُصيب بأزمة قلبية... يا إلاهي... أنا خائفة جدًّا على بابا.***

كان صوتها متقطّعا مبحوحا لا يفهم منه إلّا القليل.

- أين أنتم؟

-في المستشفى...

أُقاطعها: ***- مسافة الطريق وأكون هناك.***

أقفز من على سريري لأغيّر ملابسي قبل الذّهاب إلى المستشفى.

- وهل ستذهبين إليهم في هذه الساعة من اللّيل الصباح رباح؟

- جدّتي لأنّها ليست أسماء الصباح رباح وماذا لو كانت أسماء لغدا اللّيل رباح؟

أرى جدّتي غاضبة من إجابتي ولا أهتمّ كثيرًا بالأمر.

فأسماء شخص أنانيّ لا يهمّها أحد من غير نفسها.

لم تصبر على مصابي ورحلت هربا من الحزن.

سأعيدها إلى المنزل احتراما لأبي وسأسامحها حبّا في المرحومة عمّتي.

وصلت إلى المستشفى واستعلمت عن غرفة المدير عوني.

وجدت الكلّ يبكي من غير رضا.

أكره هذا المستشفى فقد قضيت فيه أيّاما طوالا... أيامّا شدادا هذا ما حدّثتني به نفسي.

تعانقني هانم وهي تبكي: ***- هب أبي ليس بخير أنا خائفة جدًّا عليه... ماذا لو أُصيب بمكروه... هب أنا خائفة.***

أنا أيضا كنت خائفة جدًّا عليه.

أجيبها بهدوء:***- سيكون بخير لا تقلقي... مجرّد أزمة سنتجاوزها عاجلا وليس آجلا.***

- صهري هذه مفاتيح مكتبي أرجوك خذ أمي وأختي ليستريحا هناك.

أفهم أنّه كان قلقا على أخته فقد كانت حاملا بتوءم في شهرها السابع.

- لا لن أترك أبي.

- هانم أنا سأبقى معه وإنْ حدث أيّ مستجد بعثت أحدا لإعلامك... أختي أرجوك اذهبي لتستريحي قليلا).

تمنيت لو كان لديّ أخ مثله يهتمُّ بمصابي ويخاف عليّ من مكروه.

الصمت ملاذ رضا في غالب الأحيان حين يكون منزعجا من أمر يشغله كثيرا وعلى هذا الأساس كنت أعلم أنّه لا مجال للانتظار شيء منه لكسر الصّمت.

- ما رأيك بالخروج قليلا من الغرفة؟

يحدق في قليلا ثمّ يهز رأسه بالقبول دون أنْ يقول أيّة كلمة.

نقصد غرفة الانتظار.

أجلس على أريكة ويظل هو واقفا وأفهم أنّه متوتّر جدًّا.

- ألست متعبا من الوقوف؟

لا يجيب وأظنّ أنّ عدم إجابته هو انشغاله الذّهني بمرض والده.

بتردّد أقول:***- ألستُ مسؤولة نوعا ما عمّا وقع لوالدك... لأنّ نفسي لا تتوقّف عن معاتبتي.***

- لا أعتقد فالأمر يعود إلى سنين عديدة ولا أظن أنّه يمكن لأحد أن يكون له يد في الأمر، من غير المسؤول الّذي أقنعه خداعا يبيع مصنع الحديد... المصنع في الأصل لوالدي ولكن أحد المسؤولين أقنعه بالبيع وبثمن

بخص بحجّة أنّ هناك طريقا عامّا سيمرّ من المصنع... والمصنع سيهدم في كلّ الأحوال وأن يرضى بالقليل خير له من لا شيء.

فهم والدي بعد ذلك أنّ الدولة أخذت منه مشروع حياته بهتانا وعكف يعمل من أجل الحصول على المال والنفوذ لاسترجاع ما له... دوما تساءلت عمّا يدفعه للعمل دون توقف... أصابته بالأزمة القلبية من أجل المصنع كانت الإجابة... أبي كان يعمل دون توقّف من أجل استعادة المصنع لا من أجل المال... استعادة المصنع استعادة لكبريائه وانتقامه ممّن خدعه.

يصمت رضا من بعد ذلك وأشغل نفسي بتأمّله كما يتأمّل الرّسام أعزّ لوحة على قلبه.

- ما بك رضا أأنت متعب وجهك شاحب جدًّا.

- خائف أن يتأزّم حال والدي إنْ ظلّ متمسّكا بصفقة المصنع.

أقترب منه أعانقه وأقول بصوت خافت. ***- أقسم بربّ الكون أنّ المصنع سيعود لوالدك ولو كلّف الأمر حياتي وكان سببا في هلاكي.***

- لا تكلّفي نفسك أكثر من وسعها.

- من أجلك الكثير قليل... مستعدّة أنْ أبذل وأن أدفع الكون كلّه لإرضائك.

- أهو الحب؟

- بل هو الولهان.

يبتسم بحزن.

أحسّ بقلبي ينفطر ويعتصر من الألم.

- لا أحبّ الحزن على وجهك.

- هب عليك البقاء مع والدي... لديّ عملية جراحيّة مبرمجة من شهر لطفل في السّابعة من عمره مصاب بورم على مستوى رأسه ولا يمكنني أنْ أُأَجّلها.

- اعتمد عليّ.

خرج والد رضا من المستشفى بعد شهر منهكا من المرض ولم يعد إلى الشركة إلاّ بعد شهرين تحمّلت عبء ومسؤولية كلّ شيء في غيابه.

دخلت مكتبه وأنا معدة لما سأقوله.

- سيّدي المدير أريد توقيعا من أجل أن أكون محامية دفاعك لإعادة المصنع وحماية مصالحك ارجوك سيّدي.

- تحمين مصالحي أنا لم أسمع أحدا يقولها لي من بعدها... في الحقيقة بلغت مبلغا لا أستطيع فيه إلاّ أنْ أحمي وليس لأحد أن يحميني... كانت قويّة ولم أكن لأطمئن إلاّ حين تكون معي.

- أيّها الرّئيس....

- كانت أمّي قويّة الرّوح دوما أكّدت على أنّها ستحميني ولو برموش العين... ولم تفشل حتّى إنّه بلغ بها الحد أن تضع جسدها بيني وبين والدي الجبّار كي تتلقى هي الضربات بدلا عنّي... وعدتني ووفت بالوعد... هل ستحمين حقّا مصالحي ولن تكلفي غيرك بذلك؟

أبكي وأنا أقول: ***- والله إنّي سأعيد المصنع... والله إنّي لن أكلّف الغير بما عليّ أنْ أفعله... عمّي أرجوك أنا لن أخيب ظنك.***

يبكي المدير وهو يقول: ***- المصنع كان يحمل اسم أمّي وبجواره هي مدفونة وتلك الأرض الّتي بني عليها المصنع ورثها الوحيد من والدها.***

وأنا أبكي أقول: ***- أفهم الآن جيّدا موقفك وقيمة المصنع وأعدك أنّه لن يكون إلاّ لنا.***

أنْ أعيد المصنع كان أمرًا مهمًّا جدّا بالنسبة لي وأهمّ من كلّ الأمور الّتي كانت تشغلني عن الراحة في ذلك الوقت.

التقيت بحزب العمّال وبالعمّال المسرّحين من المصنع، أقنعتهم بوجهة نظري وبأهميّة وقوفهم في صفي لحماية مصالحهم واقتنعوا. شرحت لهم أنّ غاية المدير عوني هي إعادة المصنع على ما كان عليه وتطويره وتنمية الإنتاج فيه، وهو لن يسرّح أيّ عامل بل بالعكس هو سيوفّر فرص عمل أخرى للشباب العاطلين عن العمل.

أقيمت إضرابات عديدة من طرف العمال لأجل بيع المصنع لشركتنا كوني. أكّدت لهم أنّ غايتنا هي إعادة المصنع للعمل والإنتاج وتوفير العمل لهم.

جعلت القضية قضية رأي عامّ ووقف معي الكلّ حتّى الإعلام، وهنا أخرجت كلّ الوثائق المتعلّقة ببيع المصنع وكيف احتيل على والد رضا.

وقفت ضدّ الدولة في المحكمة من أجل إرجاع الحقّ الى إصحابه وفعلت ما لم يفعله أحد قبلي من أجل رضا.

يا إلاهي لم أتصوّر أنْ أنجح بيسر.

يظهر أنّي كنت محامية بارعة دون أن أدري.

أصبحت مشهورة جدًّا في عالم المحاماة بعد هذه القضية وتلقيت عروضا كثيرة من رجال الأعمال للعمل معهم كمحامية لشركاتهم ومصالحهم.

اتصلت بي بعد آخر مقابلة صحفيّة لي بخصوص المصنع أعلنت فيها استعادة المدير عوني للمصنع بطريقة قانونية ورسميّة ما يعني فوزي بالقضية رسميًّا.

كان الأمر مضحكا بقدر ما هو مزعج.

فقد كنت مع رضا في مطعم للاحتفال بالمناسبة.

أقفلت الخطّ وإذا برضا يقول بسخرية وتهكّم: ***- حياتي أتريدين استعادة الأيّام الخوالي؟***

ضحكت كثيرًا من طريقته في صياغة ونطق الجملة.

- حياتي وهل تعود الأيام الخوالي؟ وإن عادت فلا مكان لمراد فيها ولا رغبة لي في استعادته... انتهى الأمر ولا حاجة لي به ليس الآن.

يحتسي القهوة وهو يلاحقني بعيونه الفاتنة ثمّ يقول: ***- ماذا يريد منك؟***

- يريد استعادة الأيّام الخوالي من بعد أن غدت سرابا؟

- أُشفق عليه حقًا... فهو لا يعرف الحقيقة كاملة عن حبّنا وهو حال الكثيرين يعتقدون أنّي أحببتك من النّظرة الأولى...لا يعلمون أنّ الأمر يعود إلى سنين عديدة... أفهم استغراب الكلّ حين خطبتك فهم لا يدركون ما كان بيننا.

باستغراب أجبته: ***- هل أنت جادّ فيما قلته... أأنت مشفق عليه؟***

- أليس من المحزن أن يضيع المرء امرأة مثلك فقط من أجل الانتقام... فلولا انتقامه لمّا التقينا مرّة أخرى.

- وهل أنا حقًا مميّزة في نظرك؟

- أولست متأكّدة من تميزّك حتّى من بعد أن كتبت كلّ الصحف عنك وعن ذكائك الّذي جعلك تواجهين الدولة وتظفرين بالفوز؟

- رأيك يهمّني أكثر.

- ولِمَ؟

- لأنّك الرّجل الّذي أحب وإنْ كان الغير يراني كمحامية ومديرة شركات بارعة فأنت لا بدّ أن تراني بمنظور آخر يوافق علاقتنا.

- بمنظور آخر مثل منظور أنّك تحدثين رجلا آخر غيري في موعدنا الغرامي.

- ليس موعدا غراميًّا بل احتفال باستعادة المصنع ومن ثمّ أنا لم أرد الحديث معه هو من اتصل بي أنا لا أريد أحدًا سواك.

- أتتذكّرين حين أتيت إليّ في المستشفى وأهديتني الدب الأحمر وقلت لي أحبّك هههه؟

- توقّف عن الضحك كنت صغيرة في ذلك الوقت كنت في السّادسة عشر من عمري.

- أتذكّر أنّك أتيت إلى زيارة جدّتك من بعدها تسلّلت إلى مكتبي دون أنْ يراك أحد وقفت أمامي وقلت اسمع يا دكتور أنا أحبّك ولن أسمح لأحد أنْ يحصل عليك من دوني... حدّقت فيك وقلت لك... ماذا تريدين منّي أجبت اليوم عيد الحبّ وأريدك معي وأن تقبل هذا الدب... كان أوّل اعتراف لك اعتقدتك مجنونة أو ما شابه... هههه طفلة تعترف لي عن حبّها... على كل اعترافات الحبّ من النّساء لي كثيرة لكن من طفلة في السّادسة عشر كان أوّل مرّة لي هههه.

- أحببتك وذكراك لم تغب عن قلبي كنت كمن يخفي عن نفسه أدلة حبّه كنت أبحث عن شيء يشغلني عنك ولم أجد سوى مراد... مراد الّذي جعلت منه رجل الموقف وجعل من نفسه رجل الانتقام.

- أتعرف يا رضا حين رأيتك أمامي لم أصدّق وشفيت كل الأوجاع واستعاد قلبي ذاكرته... أحبّك.

- حين كنت صغيرة خفت أنْ تكوني تتوهّمين حبّي... خفت أنْ أتمادى في حبّك فأكون الخاسر الوحيد حين تكتشفين أنّك تحبين شابًّا آخر من عمرك وأنّي لا أصلح كنت في الثلاثين وكنت في السّادسة عشر... خفت من الأمر.

- مع هذا قبلت وأتيت معي.

- لأنّي أحببتك وأحببت طريقة ملاحقتك لي في المستشفى... كنت تتعمّدين المجيء يوميّا لزيارة جدتك من بعدها تلاحقينني في الممرّات هههه يا إلاهي كنت تختبئين حين ترين أحدًا يقترب منّي وما أن يغادر تعودين للظهور... كان الأمر مزعجًا مع هذا أحببت الأمر... كنت أنتظرك يوميًّا.

- أتذكّر تلك العزيمة في عيد الحب أخذتك إلى مطعم قرب الثّانوية حيث أدرس جلست قربي منزعجا وأنت تقول هل تريدين تذكيري أنّي أكبر منك بأربعة عشر عامًا لهذا جلبتني إلى هنا حيث رفاقك... لم يكن الأمر كما تصوّرته أخذتك إلى هناك لأرى الكلّ روعة الرّجل الّذي أحب لم أستطع الاعتراف لك بذلك يومها... كنت دائما منزعجا مهما فعلت ومهما بذلت من جهد لإرضائك لم ترض... أنا من كانت تدفع وأنا من كانت تعزم مع هذا كنت من يتذمّر دوما... تعرف أنّي أحببتك جدًّا بعد أن تعوّدت عيوني على رؤيتك. فقد كنت من أستأصل الورم من رأسي جدّتي حين أصيبت بالمرض الخبيث منذ أحد عشر عامًا. كنت من أنقذ جدّتي، كنت بطلي أحببتك ودخلت قلبي وكياني، كنت تأتي يوميّا للتأكد من الوضع الصحيّ لجدّتي فارتبط بك قلبي وأحبك. أتذكّر يومًا حين أخذت يد جدّتي لجس نبضها بعد أن أنهيت طلبت منك أن تأخذ يدي لتجس نبضي. استغربت من الأمر واستنكرته قائلا أنت لست مريضة... وأنا لا وقت لي أضيّعه معك.

- سأعترف لك بأمر. أنا أيضا تمنّيت جس نبضك ولمس يدك، فهمت ما كنت ترمين له لكنّك كنت قاصرا ولم يكن لي الحقّ في فعل الأمر.

- كنت عنيدًا لا تستجيب لملاحقاتي لك ما جعلني أرغب فيك أكثر.

- أتتذكرين حين عزمتني إلى عيد ميلادك ورفضت المجيء إلى الحفلة الّتي أُلغيَت بعدها واعتذرت من الكلّ وأخذت الكعكة وأتيت بها إلى مكتبي ووضعتها على الطاولة وقلت لا أريد من المعازيم سواك... كنت جميلة أردت أن ألمس شعرك وأقبّلك... احتفلنا معًا من بعدها زرت جدّتك وغادرت إلى المنزل.

- ماذا عن اليوم الّذي أخذتني فيه بسيارتك لزيارة الجامعة حيث تعطي المحاضرات؟

- أنت من ألّحَت عليّ بالمجيء.

- كان يومًا رائعًا.

- ماذا عن إهدائك لي الورد الأحمر يوميّا... كان الأمر مضحكا... ألم تكوني تعرفين أنّه في العادة الرّجل من يدفع ويقّدم الهدايا؟

- لم يكن الأمر مهمًّا من يهدي لأنّي من أحب أولّا فلا بّد أن أكون من يهدي كان لا بدّ أنْ أقنعك بحبّي لك.

يأخذ يدي ويقبّلها.

- وهل هناك من يستطيع أن يرى هذه العيون ولا يقع في الحب...؟ أحببتك وبدأت المجاوبة شيئا فشيئا على اتصالاتك الّتي تتجاوز العشرين في اليوم ورسائلك الهاتفيّة الّتي تفوق المئة في اللّيلة الواحدة... أصبحت اتصل بك أفتقدك.

أحببتك وأصبحت لا أفكّر إلّا بك غدوت حبيبيك وتشاركنا الأفراح وكلّ شيء.

مضى الوقت شفيت الجدة بعد أشهر ورحلت، ودب الخوف في قلبي خفت أن تتوقفي عن زيارتي في المستشفى... لكن مخاوفي سرعان ما تبدّدت داومتِ على زيارتي وعزيمتي وملاحقتي كما هي العادة... أصبحت أزورك في الثّانوية متخفيا وكنت أموت غيرة كلّما رأيت شابًّا يقترب منك، وأتذمّر وأعاتبك على الأمر دومًا. كنت تحلفين أنّك لا تحبين غيري... بلغت السّابعة عشر عامًّا وغدوت متعلّقا أكثر بك ولم أعد أستطيع أن أحب سواك... كنت قاصرا وحبّي كان أكبر من أنْ يتحمّل صبرا على الانتظار وما لم تكوني تعرفينه؛ هو أنّي هُددت مرارا من أحد الجرّاحين؛ إن لم أغادر المستشفى والوطن وأتخلّى له عن إدارة قسم الجراحة جعل حبّي لك قضية رأي وطني... خفت عليك كان يملك لنا صورا ونحن متعانقين وأنا أحضنك وأنا أمسك بيدك وأنا....

- لهذا رحلت دون أن تودّعني... تعذبت جدّا دون أنْ أُخبر أحدًا.

في الفترة التي والت رحيل رضا عدت أنت وعائلتك من فرنسا بعد ثلاثة أعوام من الغياب بسبب عمل والدك ومشاريعه.

كنت في السنة الثالثة من الثّانوية. كنت محطّمة من رحيل رضا مع هذا لم أُخبر أحدًا، لم أكن أريد أن أعرض رضا للأذى. مضى الوقت وتعلّقت بك وداويت قلبي بك وأحببتك، وعدنا كما كنّا في الماضي مع اختلاف طفيف فقد اعترفت بحبّك لي وأخذت علاقتنا منحى جديدًا من حبّ أطفال بريء إلى حب آخر.

انتهى ربيع رضا الجميل وأصبحت الرّجل الوحيد في حياتي بغياب من أُحب.

نسيت رضا وكتمت على ذكراه.

تعمّدت أنْ أحبّك وأتعلّق بك لكي لا أموت من ذِكْرِ رضا.

كنت موجوعة لهذا أسميتك وجع القلب؛ لأنّك من داويت الوجع الّذي لم أجد له دواء.

منحتك قلبي وفكري متعمّدة وإذا أنت رجل الانتقام لا رجل الموقف.

أنت ذكرتني بوجعي حين تخلّيت عنّي... رضا أيضا تخلّى عنّي دون سبب دون أن يهيّئني للأمر من قبل.

الثّراء نعمة أم نقمة

تحوّلت حياتي تحوّلا جذريّا من بعد الصفقة، فقد غدوت شخصية مهمة في المجتمع وكان لابد عليّ أن آخذ بالاعتبار هذا التحوّل والتصرّف وفق المتطلّبات.

فتحت مكتب محاماة للدّفاع عن المظلومين ولمن يدفع جيِّدا أيضا.

اشتريت والمدير عوني شركة عقارات، وغدونا شركاء أخيرًا في مشروع مهم.

التحوّل مسّ العائلة.

ألم يقل السلف المال يفسد الطباع.

أفسد المال طباع جدّتي من بعد أن انتقلنا إلى منزل جديد، أو بالأحرى إلى قصر جديد.

أصبحت قاسية تتصرّف بتعجرف مع الخدم ولا ترحمهم البتة.

دخلت المنزل من بعد يوم ملاه العمل.

وكما العادة كان لا بد عليّ أنْ أصغي إلى توبيخ الجدّة للخدم لأنّهم أو بالأحرى وفق ما تسرده لا يعملون بجد ويأخذون المال هكذا مجانا.

- جدّتي من فضلك أنا متعبة وعليّ أنْ أستريح لا يمكنني أنْ أحكم في أمر لا أعرف فيه سوى وجهة نظر طرف واحد... لا يمكن حلّ المسائل بهذه الطريقة العشوائيّة المبنيّة على طرف واحد أنا محامية....

تقاطعني وتقول بغضب: ***- أتريدين أن تحكمي بيني وبين الخدم... أتريدين أن تكون محامية على جدّتك الّتي ربتك وربت والدك آه منك.***

ولِمَ لا؟

إنْ كان الأمر يقتضي ذلك فعلته لكنّي أثق بطيبة أمّي وبأنّها تطيب يوميا خاطر من يعمل في هذا المنزل.

- أريد أنْ أستريح.

- أهكذا تجيبين جدّتك؟

- المنزل منزلك ولك الحقّ بالتصرّف وفق ما يتطلّبه الوضع.

لم أرد أن أقول لها وفق ما يتطلّبه ضميرك، فأنا لم أعد أثق كثيرا بضميرها وبمصداقيته منذ أن توفر عندنا المال الكثير.

- أريد أن أطرد جميلة.

- ماذا فعلت؟

- تتأخّر يوميًّا في المجيء للعمل.

- لأنّها تسكن على بعد كبير من منزلنا.

لم أرد أن تطرد جميلة لأنّها امرأة صالحة تعمل بجد وبمصداقيّة معتبرة. توفي زوجها واشتغلت خادمة من أجل أولادها لا يحقّ لنا طردها فقط لأنّها تتأخّر يوميًّا في المجيء إلى العمل، ماذا سيحدث لأولادها إن نحن طردناها.

- لا يهم.

- لا لن تطرديها وإن طردتها شغلتها في المكتب.

- كمحامية؟

أكره سخرية الجدة.

- لا بل كمديرة.

- أتعنين ما قلته؟

- ومتى قلت شيئا دون أن أعنيه.

- أتجعلين من الخادمة مديرة؟

- أفعل.

- أهو انتقام منّي؟

- لا بل هو أخذ بالعاطفة الانسانيّة التي تقتضي منّا أن نرحم غيرنا وإنْ لم يكونوا من أهلنا أو أقربائنا.

- أتقصدين أنّي لا أحمل عاطفة إنسانية؟

لا أجيب وأصعد إلى غرفتي وأتركها تغلي كالبركان.

جدّتي تثير الكثير من المشاكل مع الخدم، ولم يكن لديّ الوقت للنظر في الأمر وكلّما زاد مالنا زاد تعجرفها.

استلقيت على سريري وإذا بالهاتف يرن.

- مرحبًا رضا.

يا إلاهي من شدّة العمل نسيت أنّه في دبي من أجل عمل ومن أجل عقد مؤتمر صحفيّ هناك، حتّى إنّي لم أتصل للتأكّد من بلوغه الوجهة بسلام.

- هب أهلا...

أقاطعه***. - آسفة جدّا لأنّي لم أتصل بك أمس للتأكد من وصولك بالسلامة ... ولكنّي حقّا مشغولة جدا ولو لا السكرتيرة الّتي تذكّرني بالمواعيد لما استقبلت حتّى العملاء من كثرة العمل.***

- أعرف أنّ خطيبتي نسخة طبق الأصل من والدي ولا يزعجني الأمر كثيرًا ... والدي أيضا كان ينسى الاتصال بنا من كثرة العمل.

اتنهّد ثمّ أقول***: - حسنا إذا كيف الحال؟***

- عقدت المؤتمر وشرحت له العملية الجراحيّة وألقيت محاضرة على الأطباء في المستشفى الوطنيّ، ولم يبق إلّا أنْ أقوم بعمليتين جراحيّتين كما هو متفّق عليه.

- رائع أيْ أنّك ستعود قريبا.

ـ لا أعتقد لأنّ العملية الأولى ستكون بعد أسبوع والعملية الثّانية بعد عشرين يومًا من الآن.

ـ سأفتقدك.

ـ لا أعتقد.

ـ ماذا تقصد بهذا؟

ـ أنت ستكونين في دبي غدًا كأقصى حد.

ـ مستحيل لديّ أعمال كثيرة حتّى إنّه عليّ المرافعة عن أحد الموكلين لي غدًا في المحكمة الوطنيّة.

ـ مع هذا أنا متأكّد من أنّك ستكونين في دبي غدًا. على كل لقد قامت الوزارة بحجز منزل كامل لي ولن يكون عليك الحجز في الفندق.

كنت دومًا في صدد البحث عن أسماء حتّى أنّي استأجرت محققا خاصّا لإيجادها.

ولا يمكن لشيء أن يجعلني أذهب إلى دبي إلّا وجود أسماء هناك.

بتردّد شديد: ***ـ هل التقيت بأسماء هناك.***

ـ أحب ذكائك واستيعابك السّريع للأشياء.

ـ إذًا هي أسماء.

ـ أجل... أسماء تعمل في المستشفى هنا وقد كانت موجودة في الصالة حين ألقيت المحاضرة.

ـ تحدّثت معها.

ـ طرحت سؤالا بخصوص العمليّة الجراحيّة...

ـ أهي بخير؟

ـ أعتقد ذلك.

تنطلق الدموع وأجهش بالبكاء.

جراحي ليست قديمة ولم تلتئم بعد.

كنت أبكي لأتفه الأمور وقتها ولم يشتد عودي جيّدا بعد.

- أتبكين؟

- أبكي عدم وقوفها معي حين كنت محتاجة لها؟

- الأمر يعود إلى زمن بعيد والبشر خطّاؤون من منّا لم يخطئ يوما في حياته حبيبتي. كلّما اعتقدت أنّك غدوت قويّة وأنّه لن يعود هناك حاجة في اللاتماسك منّي عونا وحنانا أثبتي لي غير ذلك. على كل الأمر لن يتطلّب منك سوى بعض الكلمات والمسألة ستحل.

دبي لقد دخلت ذلك الوطن لمرّات من أجل عقد الصفقات. أنا يومها كنت هناك من أجل استعادة علاقتي مع أسماء علاقتي الّتي انقطعت بسببك.

وجدت رضا في المطار ينتظرني.

بعد عناق طويل ركبنا السيارة وتوجّهنا إلى المنزل الّذي استأجر له.

استلقيت على الأريكة في الصالون وإحساس غريب بأنّ قلبي سينفجر من الألم لا يغادرني ولا يكف عن بثّ الدّموع إلى عيوني.

ينزل رضا الدرج وهو يبتسم ويقول: ***- ألست في غرفتك؟***

يجلس بعدها مقابلا لي.

- سأنام هنا. رضا أنا حزينة جدًّا أخبرني لو لم ترحل وتتركني هل كان كلّ هذا ليحدث...؟ أسماء لم ترحم ضعفي.

- ولو كان بيدي أكنت لأرحل؟ لم أرد أن تتعرّض المرأة الّتي أحب إلى الفضيحة. وأعلمي أنّه لو لم يتّصل بي ذلك الطبيب ويترجّاني للعودة من أجل مداواة ابنه مقابل تخلّصه من تلك الصور لمّا أتيت. لم أكنْ لأعرّضك للأذى.

يقترب ويستلقي قربي.

يسود صمت طويل بيننا.

أقول له بعد أن زال عنّي بعض الحزن الّذي أبحرت فيه نفسي وأنا أبتسم:
- لو كانت جدّتي على علم بأنّنا سنكون معًا في منزل واحد لأتت وما سمحت بالأمر أنْ يحدث.

يضحك رضا ويقول: ***- لن أنسى رحلتنا إلى فرنسا لا أصدّق أنّها أتت معنا ولم تقبل أن نسافر لوحدنا.***

- كانت الرّحلة جحيما... شاركتني الغرفة لأنّك لم تجد غرفة أخرى تحجزها لها وأنت الّذي لم تحسب لمجيء جدّتي حسابا... كانت طوال اللّيل تروي حياتها وتقارنها بحياة، من في الفندق وإنّها لم تعرف أنّ الحياة جميلة هكذا وأنه ضاع الكثير من حياتها هباء...

- قضيت الرّحلة أتجوّل في باريس وحيدًا أمّا أنت تعملين من أجل الحصول على صفقة مهمّة، والجدّة تتجوّل مع مرشد سياحيّ كانت المستفيد الوحيد من الرحلة.

- اليوم لو تعلم أنّنا نتشارك البيت نفسه لأتتها أفكار لانحنى لها الإبليس نفسه.

- ههههه غريبة هي جدّتك لا تعلم أنّ من يحب لا يمكن أنْ يؤذي حبيبه أو أن يجعله يخطئ باسم الحب.

- رضا أحبّك أنت أجمل ما وقع لي كلّما رأيتك تذكّرت أوّل لقاء لنا... استقبلتنا أنا ووالدي في مكتبك بصفتنا أهل مريضتك جدّتي... حدثت والدي بخصوص العمليّة الجراحيّة الّتي ستجريها لجدّتي وعن موعدها... لم تهتم بوجودي ولا بنظراتي... أحببتك يومها وأردت أن تكون نصيبي... يومها قرّرت أن أبذل حياتي من أجلك... يومها أهديت قلبي لك... أنت يا رضا أهمّ ما أملك وما ملكت أنا مستعدّة أنْ أواجه الكون من أجل أن تسعد.

يقترب منّي أكثر ويأخذ يدي ويقبّلها وهو يقول: - هوّني عليك أنا أعرف أنّ علاقتك مع مراد لم تكن شيئا أمام ما تكنينه لي من حب... أنا أيضا أحبّك وأحببتك من بعد رابع تسلّل لك إلى مكتبي لإعلان حبّك لي... هههه كنت صغيرة وبريئة لن أنسى تصرّفاتك المضحكة وطريقتك في ملاحقتي... لم أكن لأحبّ غيرك وأنت الّتي لم تكوني تخافين لومة لائم في حبّك البريء... ألن نتزوّج... فلنتزوج بعد عودتنا...

- تعرف أنّه لديّ الكثير من العمل ولن أستطيع الزّواج الآن؟

- رزقني الله بزوجة تماثل والدي في الخلق والفكر أهي هبة أم بلاء؟

- بلاء يا عمري وأنت لا تدري... هههههههه.

غرفة فندق واسعة وفخمة وأنا جالسة فيها على أريكة بثوب أبيض مصمّم خصّيصا لي من أهمّ مصمّم عالمي.

- تمنّيت رؤيتك بهذا الثّوب.

- قد لبسته من أجلك ولم تأت لتراني به... تركتني أنتظر في صالة الحفلات أتعلم معنى أنْ لا يأتي العريس لأخذ عروسه؟

- حسب روايتك أنت لم تكوني تحبّينني بصدق لأن رضا كان دوما بيننا.

- لم يكن رضا بيننا بل انتقامك من كان بيننا.

- لما لم تخبريني عن رضا؟

- لم أخبر أحدًا عنه.

- لست أيّ أحد.

- لم تكن أيّ أحد مع هذا لم أقدر على إخبارك فرضا لا يخصّ أحدًا سواي. رضا هو كياني الّذي لا ينفع الحديث فيه وكيف أتحدّث في شيء أكبر منّي.

حبّ رضا أكبر منّي... كيف أتحدّث في شيء لا أفهمه حب رضا شيء لا أفهمه... شيء يفوق الإدراك وإدراكي... لا أنا أستطيع التحدّث ولا شرح ما بيننا وما كان بيننا ولا أنا قادرة الخوض فيه مع غيري.

- هب أريد فرصة أخرى.

- أتطلب فرصة أخرى وأنا بثوب الزفاف لأتزوّج من غيرك؟

- ألَمْ تقولي لي يوما بأنّك لن تحبّي بعدي رجلا آخر؟

- رضا لم يكن رجلا بعدك بل قبلك... رضا هو الماضي الّذي أخذ منّي غدرا... رضا هو الرّجل الّذي أحببته صغيرة وبجنون فلم يستغل حبّي بل تصرّف بكلّ عقلانيّة وحماني من نفسي وأحبّني بصدق وإخلاص ولم

يسع للانتقام مع أنّه علم بأنّي أحببت وارتبطت بغيره بعده... لم يهتم بشيء سوى بحبّنا واستعادته.

- هب أرجوك.

- مراد أرجوك عد للمياه وطفلتك هما بحاجتك أكثر من أيّ أحد في هذا الكون... لمياء تحتاجك هي تنتظر طفلا آخر أعرف أنّك لا تعلم وأرى أنّه من واجبي اطلاعك عساك تعود إلى رشدك وتصلح علاقتك مع زوجتك هي الآن تسكن عندي، ولكن الأمر لا يمكن أن يدوم إلى الأبد لا بد أنْ تعود المياه إلى مجاريها.

- هي صديقتي وأنا سعيدة بوجودها قربي لكنّها تحتاج إليك أنت.

- أريد إصلاح علاقتي مع نفسي أوّلاً... أنت جزء من نفسي يا نرجس نفسي.

- لِم تصعب الأمور؟

- لأنّي أحبّك... أحقّا نسيت حبّنا وكلّ ما قضيناه معا. أتتذكّرين حين كنّا في الجامعة نحن لم نكن نفترق ولو للحظة؟

- بحقّ السماء ماذا تريد منّي؟

- أريدك أنت؟

- لا يمكن... مستحيل.

- لا يوجد شيء مستحيل حين نريد... وأنا أريدك أحبّك أهواك أعشقك...

- أأنت هنا لتقول هذا؟

- أنا هنا لاستعادتك.

- أنا أيضا يومها اعتقدت أنّه من الممكن استعادة ضالتنا حقّا. أعتقدت أنّي استعدت ابنة عمّتي ولكن الحقيقة غير ذلك، فقد اكتشفت بعد عودتها

أنّها أصبحت أبعد ممّا كانت عليه منّي حين كانت في الغربة... يومها فهمت أنّنا لا نستعيد ما فقدناه بل نتوهّم استعادته.

المال نقمة قبل أن يكون نعمة

عادت أسماء معي بعد أن أقنعتها وطيبت خاطرها.

ليتها لم تعد وظلّت في الغربة.

يبدو أنّ أسماء ورثت الكثير عن الجدّة وأنا لا أدري.

انقلب حالها 180 درجة وكأنّها شخص آخر.

تغيّر شكلها وشكل لباسها، طريقة حديثها وتفكيرها.

أصبحت أفتقدها وأنا معها فهي لم تعد أسماء الّتي أعرفها وأحبّها.

أصبحت تتصرّف كالأثرياء المنعدمين من الخلق والمبادئ والإحساس بالغير.

تخلّت عن عملها وانصرفت الى عالم آخر عالم الموضة والجمال دون خبرة أو شهادة وأصبحت مصمّمة أزياء مشهورة يظهر أنّ جدّتي محقّة في جملتها الاعتياديّة. ***- المال يصنع طريقا في البحر.***

تعبت من تصرّفات أسماء كما هو الحال مع الجدّة.

دائما مشاكل مع الخدم.

دائما تصرّفات تافهة تحيّرني وتجعلني أدخل في تساؤلات كثيرة عن السبب الحقيقيّ الّذي يجعل الإنسان يتخلّى عن جوهره بمجرّد امتلاكه للمال، أو ربّما المال من ساعد على إظهار الجوهر الأسود المخفيّ لقلّة المال والحيلة.

كنت في المكتب بعد صفقات عدة لساعات طوال.

يدخل مراد الّذي غدا مدير الفرع التجاري ويجدني جالسة على المكتب أحدّث المدير عنّي وأشرح له كلّ ما استنتج في الصفقات الأخيرة. أقفل الخطّ بعد توديع المدير وإعلان الوفاء له ووعده بالحصول على كلّ الصفقات الّتي يريدها كما هي العادة.

ـ ماذا تريد؟ مراد تعلم أنّي متعبة جدًّا ولن أتحدّث في العمل.

ـ الأمر لا يخصّ العمل.

ـ إذًا أجِلْه ليس لديّ الوقت لغير العمل، تعلم أنّ مصنع الحديد يأخذ كلّ وقتي فالكلّ يترصّدنا الدولة والصحافة للتأكّد من مصداقيّة وعودنا الكثيرة.

يقاطعني: ***ـ سيّدي المدير.***

ـ طلبت منك تكرارا أنْ لا تناديني بسيّدي المدير أنا لست رجلا... على كلّ أنت لست ممّن يصغي للقول أو يغيّر من فكره بيسر وأنا لا أملك من الوقت ما يكفي لمعالجة هذا.

ـ منذ أن كسبت القضيّة ضدّ الدولة ولساني غير قادر على أنْ يناديك بغير سيّدي المدير.

ـ ألم أقل لك عنيد ولن تغيّر الأمر مهما طلبت. ما هو مطلبك؟

ـ أريد طلب يد أسماء.

ـ أسماء من؟

ـ ابنة عمّتك رحمة الله عليها.

ـ تقصد ابنة الحسب المصمّمة. أنت لا تصلح لها فهي ليست من الطبقة الاجتماعيّة الّتي انحدر منها أنا وأنت هي من طبقة أخرى وسترهقك.

ـ أحبّها.

ـ أو تعرفها لتحبّها؟

ـ بالطبع فمنذ الحفلة الّتي أقمتها على شرف عودتها وأنا وأسماء...

أقاطعه: ***ـ تتقابلان في السر؟***

ـ الجدّة على علم بالأمر.

ـ أطلب يدها من جدّتها إذًا.

ـ أأنت غاضبة؟

ـ أنا مشغولة ولست غاضبة على كلّ جدّتي المسؤولة عنّا والقرار الأخير في زواجنا يعود إليها.

تزوّجت أسماء بعد شهرين ورحلت.

رحلت أسماء وغدت بعيدة عنّي.

غرفة فندق واسعة وفخمة على الطراز العربيّ القديم وأنا وأنت فيها كالغريبين من بعد أنْ كنّا في الماضي القديم قريبين ومقرر زواجنا.

أحببتك والحب لم يغيّر من طباعك وحبّك للانتقام.

- حبّي لك لم يغيّر فيك شيئا.

- بل غيّر الكثير جعلني آتيك وأتحدّى نفسي لأترجاك بعدم الزواج وإعادة ما كان بيننا.

- قد فعلها حسام أشرف من قبلك ولم يجد سوى الرّفض.

- عديم الحياء أيجرأ على فعل هذا؟ وهو السّبب الرّئيس فيما نحن عليه اليوم.

أتنفّس بعمق وأقول: ***- عليك المغادرة الآن.***

- هب أهذه النّهاية؟

- بل البداية بالنّسبة لي.

يدخل رضا وهو يلبس طقما أسودا جميلا يحدق في مراد ويقول: ***- ترجيتني أن أسمح لك بمحادثتها لثوان وليس لساعات.***

يمنحني رضا ذراعه لأتمسّك بها.

أخذها ونزل معه إلى الصالة المعدّة لزواجنا وأنا تاركة ورائي مراد في غرفة فندق واسعة وفخمة على الطّراز العربيّ القديم.

- مراد هذا أجمل يوم في حياتي.

- أحبّك هب.

النهاية.